التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

بطل الأبطال

أو

أبرز صفات النبى محمّد
صَلّى ٱللهُ عَليهِ وَسَلّمْ

بقلم
عبد الرحمن عزام

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب الرابع عشر
١٣٨٤ - ١٩٦٤

تقـــديـــم

بقلم

المغفور له الأستاذ الامام الشيخ

محمد مصطفى المراغى

الشيخ الاسبق للجامع الازهـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

(١)

هذه أحاديث أذاعها الأستاذ عبد الرحمن عزام منذ سنتين ، فتلقاها المستمعون بالاستحسان والشكران ، وود كثير منهم أن تنشر ، لينتفع بها من لم يسمعها ، وليتيسر لمن سمعها أن يقرأها متتابعة متصلة ، آخذة حقها من الامعان والتدبر . معطية القارىء نصيبه من الفائدة والغبطة.

(٢)

وقد أحسن الأستاذ عبد الرحمن عزام اذ اختار للاذاعة موضوعا رائعا جليلا ، فيه من العبرة والعظة ، ومن المثل والأسوة ، مالا ينفد على طول التفكر والتدبر ، هو سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . وأحسن مرة أخرى حين تناول السيرة من الناحية الخلقية ، والناس اليوم أحوج ما كانوا الى أن يهتدوا بأخلاق محمد ، ويقبسوا من نوره . تناول السيرة المحمدية ، فبين أخلاق الرسول الكريم ، وفصل القول فى صفاته الكريمة ، على قدر ما وسع الحديث ، وأذن المقام . وزاد احسانا اذ استخلص هذه السيرة الكريمة من الحادثات ، فقرنها بحججها ، وعرضها فى نور براهينها ، فلم يرسل القول دعاوى يعوزها البرهان ، ويلتمس لها الدليل ، بل جاء بالدعوى فى شهود عدل ، من الواقعات البينة ، والروايات الصادقة .

(٣)

تكلم المؤلف عن بحثه صلى الله عليه وسلم عن الحق ، وثباته عليه ،وعن شجاعته ، ووفائه ، وزهده ، وقناعته ، وتواضعه ، وتعبده ، وعفوه ، وصفحه، وبره ، ورحمته ، وفصاحته ، وبلاغته ، وحسن سياسته ، وحكمته فى تصريف الأمور ، وعن أثر الدعوة المحمدية فى الفرد والجماعة ، فأبان للنـــاس أروع ما عرف البشر من سيرة ، وأجمل ماوعى التاريخ من خلق ، وأعلى ماروت الأيام من عظمة : عظمـــة النفس ، المســـتمدة من صميم القلب ، ومـــكنون السرائر ، العظمة التى لايكسبها الانسان بماله أو ســـلطانه ، أو منصبه أو جاهه ، ولكنها مشتقة من نفسه ، مفطورة فى خلقه ، لا يزيدها الرخاءوتنقصها الشدة ، ولا يظهرها الغنى ويخفيها الفقر ، ولا يكبرها ســـلطان ويصغرها زواله ، ولا يقويها نصر وتضعفها هزيمة ، العظمة الثابتة فى نفس العظيم ثبات قوانين الله فى أرضه وسمائه ، والسارية فى أعماله سريان ارادة الله فى سننه « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

هذه هى السيرة الرائعة ، التى تناول بعض نواحيها الأستاذ عبد الرحمن عـــزام ، فعرضـــها فى جلالها وجمالها ، تحدوها البراهـــين ، وتحف بهـــا الأدلة ، وتتجلى فيها النفس الانســـانية فى أكمل صـــورها ، فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٤)

قد أحسن المؤلف ، وانا لنرجو أن يكون لـــكتابه من الفائدة والنفع ما يلائم هذا الاحسان ، ويكافىء المشقة التى تحملها ، والمقصد العظيم الذى قصده ، والاخلاص الذى يملأ نفسه ، ويتجلى فى كل سطر مما كتب ، والله يحسن جزاءه ، وهو لا يضيع أجر المحسنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة الطبعـة الاولى

أردت أن أذيع أحاديث فى سير أبطال العرب ، وكم نشـأت هذه الأمة الكريمة من أبطال ! فلما تتبعت سيرهم ورقيت فى درجات البطولة درجة بعد أخرى ، انتهيت الى الذروة العليا ، التى طمح اليها أولئك الأبطال فسمت بنفوسهم ، والمثل الأعلى الذى نظروا اليه فأشربت قلوبهم العظمة والبطولة .

وبحثت فيما وراء بطولتهم من أسـباب ، وما قادهم اليها من هـدى وتعليم ، فانتهيت الى المورد الذى صدروا عنه والمنزل الذى رحلوا منه ، فاذا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذروة العليا التى طمحوا اليها ، والمثل الأعلى الذى سموا اليه ، واذا هديه مصدر بطولتهم ، ومبدأ سيرتهم .

فحدثت نفسى أن أبدأ بسيرة معلم الأبطال وامامهم ، فأجللت الرسول الأعظم أن أسميه بطلا ، وأتناول سيرته فى حديث الأبطال .

ثم قلت : انها أحاديث ، تخاطب المصدق والمنكر ، والمسلم وغير المسلم ، فلابد أن أتحدث عن سيد البشر ، كما أتحدث عن البشر ، ليصغى الى الحديث ضروب الناس ، على اختـلاف أديانهم ، وتفـرق مذاهبهم . وسترتقى هذه السيرة ، لا محالة ، بمستمعها الى الغاية التى ينقطع دونها كل بطل — الى الرسالة التى تسمو بصاحبها عن البطولة وحديث الأبطال .

فأجملت الـكلام فى السيرة الخالدة ، على قدر ماوسع علمى ووقتى ، وأردت أن تكون فاتحة لأحاديث طويلة فى بطـولة العرب ، وبسملة للسير

الرائعة فى تاريخ البشر ، فحالت حوائل دون المضى فى الأحاديث الى غايتها ، فوقفت راجيا أن تتاح الفرصة لى أو لغيرى ليتم الحديث .

وأشهد أنى لم أبلغ من تجلية السيرة ما يكافىء عظمتها ، ولا ماقصدت اليه ، ولكنها فاتحة أرجو أن يكون وراءها أحاديث مستوعبة فى السيرة الكريمة ، على هذا النمط .

والله يهيىء لنا من كل أمر رشدا ، ويهدينا للتى هى أقوم ، بالاقتداء بسيرة سيد البشر ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الرحمن عزام

مقـــــدمة الطبعة الثانية

منذ عشرين سنة كنت أتحــدث فى الاذاعة المصرية عن أبطال العرب ، فلما ابتدأت بسيد العرب ، بل ســيد البشر محمــد صلى الله عليه وسلم ، تضاءل فى نظرى كل حــديث عن الأبطال . وخرج من تلك الأحاديث هذا الكتاب ونشر ، وتحدث الناس عنه حديثا حسنا ، وأمل كثــيرون أن يعاد طبعه وأن يعم نفعه ، اذ رأوا فيه خلاصة مركزة لسيرة الرسول مستمدة من جميع المصادر الصادقة .

وقد كنت حين كتابة أحاديث عن أبرز صفات الرسول صلى الله عليه وسلم أقرأ كل ماوصــل الى من كتب المســلمين والأجانب فى لغات شتى . ولكنى كنت أتحرى الاختصار والحقيقة ما استطعت الى ذلك سبيلا .

وأظن أن هذا الكتاب على صغر حجمه يتناول الوقائع ويشــير اليها بحيث أشعر حين أقرؤه بعد عشرين سنة من كتابته أنه يثير فى نفسى مشاعر وحوادث من السيرة لا يجمع شتاتها الا كتاب كبير .

ولعل يسره وسهولته يعينان ناشئتنا من العرب والمسلمين على ادراك ما فى دينهم من سمو على المذاهب كلها قديمها وحديثها ، وعلى أن رسول هذا الدين ورمزه هو القدوة التى يقتدى بها من يريد أن يحيا حياة طيبة فى هذا العصر ، بل وفى كل العصور . فالذين ينشأون من أبناء المسلمين فيتطلعون الى قادة الأمم وأبطالها ويتخذون منهم مثلا سيجدون أن أعلى من يؤتم به ويعلو على الأبطال جميعا هو امام هذه الأمة وسيدها محمد صلى الله عليه وسلم ، اذا ما يسر لهم أن يطلعوا على مثل هذا الكتاب فى سيرته الشريفة .

عبد الرحمن عزام

بحثه عن الحق وثباته عليه

ان ذكرى الأبطال ، والتحدث عنهم ، لمن أحب الذكريات ، وأطيب الأحاديث ، ذلك لأنهم أعلام الهدى فى تاريخ البشرية ، وأنهم المنارات فى آفاق الظلمات .

ومن هؤلاء الأبطال من امتازوا باتساع دائرة تأثيرهم وسلطانهم ، فلم تقم فى وجوههم عقبات العصبية ، ولا عقبات الزمن .

أولئك هم المبرزون فى تاريخ الانسانية ، وأولئك هم الذين كان لاصلاحهم الخلود والأثر الباقى . وأعظم هؤلاء هو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ باجماع المفكرين .

يقول فيه — كرلايل — كان مولده مبعثا للنور من الظلمات . ويقول السير موير : لم يكن الاصلاح أعسر ، ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد، ولا نعلم نجاحا واصلاحا تم ، كالذى تركه عند وفاته . ويقول ليونارد : ان كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله ، وان كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له ، وفنى فى خدمته بقصد شريف ، ودافع عظيم ، فان هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبى العرب . وفى دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمد النجاح ، الذى لم ينل مثله نبى ولا مصلح دينى فى زمن من الأزمنة . ويقول بوزورث اسمث : ان محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الاطلاق .

فمحمد الذى هو فى نظر المسلمين خاتم الأنبياء والرسل ومعلم الأبطال ، هو فى نظر المفكرين من أهل الملل الأخرى ، أكبر المصلحين على الاطلاق ، فلا يحق لنا أن نتحدث عن البطولة دون أن نشرف حديثنا به أولا .

فى سنة ١٩٢٨ ميلادية وقفت لأول مرة على قبر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مأخوذا مأسورا لهذه البطولة ، فكنت أجد أمام الضريح طيب المقام ، كما أجد فى تلك الحضرة التى توحى أعظم ذكرى ، ريح الخلود

هنا روح لا يزال يشرق من غيابة الماضى ! هنا الرجل ! هنا بطل الأبطال ! وأى الناس لايجد فى أحد الأبطال مثله الأعلى ؟ كنت اذا هممت بالانصراف خلفت ورائى كل الرجاء ، وكل المقصود ، واذا أقبلت صاحبنى الى القبر خشوع من الحب والاكبار . فأى النواحى لمحمد هى التى ملكتنى أكثر من غيرها ؟ ذلك ما سأحاول الكشف عنه فى أحاديثى .

كانت ناحية الرجولة تهز مشاعرى ، وستهز مشاعر الناس مدى الدهر ، سواء آمنوا أم كفروا . فلو لم يكن محمد هذا الرسول الكريم معدا بالفطرة للرسالة العظيمة التى قام بها ، لما كان رسولا . ولو لم يكن ذلك الروح المشرق أهلا للاتصال بالقوى الالهية ، اتصالا فوق العادة ، لما أمكن أن تلقى اليه كلمة الله . والى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته (١) » .

فمحمد خلق عظيما قبل أن يوحى اليه ، وقبل أن يكون رسولا .

نفر منذ صباه من عبادة الأوثان ، وهى آلهة آبائه ، ومصدر عزتهم فى جزيرة العرب كلها . وكان منذ صباه الصادق الوفى ، المحبوب المبجل فى قومه ، فسماه قومه الأمين .

وكان فضله ظاهرا منذ شبابه ، فدعته امرأة من صواحب الثروة الواسعة فى قريش ومن أعلاها نسبا ، الى التزوج بها مع علمها بفقره .

ولما وقف لأول مرة على الصفا يدعو عشيرته الى دينه قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ قالوا ماجربنا عليك كذبا . قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

كان قبل الرسالة أشد الناس نفورا من الظلم ، وهضم حقوق الضعفاء ، فما تحمس لعمل فى الجاهلية تحمسه لحلف الفضول ، وهو : أشرف حلف فى العرب . وسببه أن رجلا من زبيد ، من أهل اليمن ، باع سلعة من العاص بن وائل السهمى ، فظلمه بالثمن ، فذكر ظلامته فى قصيدة مطلعها :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائى الدار والنفر

فلما سمع بنو هاشم ذلك دعوا الى تعاقد وتعاهد سمى حلف الفضول، فلا يجدون بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ، ممن دخلها من سائر الناس ، الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمة ، حتى ترد عليه مظلمته .

وفى هذا الحلف يقول محمد صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الاسلام لأجبت » . فنصرة الفقير والضعيف ، هى أحب الأمور الى نفسه .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم كامل الخلق والمروءة ، وعاش ولم يكن للبيئة سلطان على نفسه ، بل كان طلب الحق والثبات عليه ، أبين صفاته الحميدة .

وسنضرب بعض الأمثال على تلك الصفة البارزة فى حياة بطل الاسلام الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

انظروا اليه وقد ولد فى بيت رياسة متوارثة ، عن هاشم عن عبد مناف عن قصى ، قصى الذى دانت له الرقاب ، واستأثر فى مكة بالسلطان ، وانفرد قومه قريش بالقيام على دين العرب ، ورعاية أصنامها ، وسدانة كعبتها ، والسقاية والرفادة ، وما الى ذلك من المناصب ، التى ترفع الذكر فى طول البلاد وعرضها .

فهل منع هذا الميراث محمدا من طلب الحق والثبات عليه ؟ كلا ! لقد سفه أحلام آبائه ، ودعا الى هدم النظام الدينى ، الذى كان به فخر عشيرته وسلطانها .

وانظروا كذلك اليه فى بنى عبد مناف ، وبين بنى هاشم والمطلب ، يلقى رعاية لم ينلها أحد من صبية هذا البيت . فهو الوحيد من البنين والحفدة ، الذى كان يجلس على فراش جده سيد القوم .

كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا ، حتى يخرج اليه ، ولا يجلس عليه أحد من بنيه ، اجلالا له ، فكان رسول الله يأتى وهو غلام ، فيجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه عليه ، ويمسح ظهره ، ويسر بما يراه يصنع .

وتهيأ عمه أبو طالب للرحيل الى الشام فى تجارة ، فلما أجمع المسير ضبب (١) به محمد صلى الله عليه وسلم فرق له ، وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى أبدا . فخرج به معه ، يحمله فى ذلك السفر الشاق الطويل .

هذا التدليل والبر الذى حباه اياه جده وعمه ، كان جديرا أن يصرفه الى دين آبائه ، ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم لم تسكن الى غير الحق ، فلما وجده ثبت عليه فى وجه قومه المدللين له ، والبررة به .

فأى مثل فى طلب الحق أعظم من ذلك الذى ضربه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولما أوفدت قريش زعماءها الى أبى طالب تنذره ، وتطلب اليه أن يكف ابن أخيه عنها ، أو تنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، عظم الأمر على أبى طالب ، وخشى دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، فبعث الى محمد : ان قومك قد أنذرونى ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

---

(١) أى تعلق به .

فأجاب محمد : ياعمى ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته ! وبكى وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب : أقبل يابن أخى ، فأقبل ، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

فبكاء محمد فى طفولته ألزم أبا طالب أن يحمله الى الشام ، وبكاؤه فى كهولته جعله يعرض نفسه وأهله للهلاك . فلو لم يكن الحق الذى دان به محمد قد ملك قلبه ، فلا يرى سواه ، لكان وفاء عمه له هذا الوفاء ، كافيا لصده عما هو فيه ، أو كان كافيا على الأقل لقبوله هدنة يفرج بها عن عمه وأهله كربهم . فأى ثبات على العقيدة أعظم من هذا الثبات ، وأى امتحان للايمان أكثر من هذا الامتحان ؟

هذا المقام وأبو طالب مهدد بالهلاك ، منذر من قريش ، ومن ورائها دهماء العرب ، يستعطف رسول الله لينزل عن رأيه ، فلا يجد الا الاباء والبكاء . هذا المقام ، والأعاصير تعصف بالرجلين ، وأضعفهما يريد هدم دين الآخر .. هذا المقام صورة من أبدع الصور ، تبقى أبد الدهر مثلا لسعة الصدر ، وحرية الرأى ، والتكافل ، والوفاء ، والصبر ، يقوم فيه رسول الله صورة صادقة لحب الحق ، والثبات على العقيدة .

ثم انظروا صورة أخرى ، هى مثل فى الكرامة والوفاء ، وحرية الرأى . انظروا الى رجل من آل عبد المطلب كان مولعا بالصيد ، يخرج كل يوم للقنص ، فاذا مارجع طاف بالكعبة ، ثم مر بأندية قريش يسلم على أهلها ، ويتحدث ، وكان أعز فتى فيهم ، وأبعدهم عن دين محمد ، هو حمزة بن عبد المطلب . رجع يوما من قنصه ، وطاف بالأوثان كعادته ، فقالت له جارية : ان أبا الحكم بن هشام (أبا جهل) ، وجد محمدا هاهنا جالسا ، فسبه ونال منه ما يكره ، وانصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ، فغضب حمزة وثار ، وقصد الى أبى جهل فى مجمع قريش ، وضربه بالقوس ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول .!

انظروا هذه الصورة : أعز فتى فى قريش يتقرب الى أصنامها ، ويأنس بأنديتها ، يخرج على القوم ودينهم ، غضبا لكرامة ابن أخيه ، وتحديا للذين تعرضوا لحريته .

هل هناك أعظم من هذا الوفاء والبر بمحمد ؟

ثم انظروا اليه صلى الله عليه وسلم يشهد هذا الوفاء ، ويرى بنى عبد المطلب فى فم الأسد ، ولا يتزحزح عن مقامه ، بل يهزأ بالدنيا ، ويقول : « لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر أو أهلك دونه » .

أرأيتم كيف يعشق الحق ؟ وكيف يكون الثبات عليه ؟ تلكم أظهر صفات محمد صلى الله عليه وسلم .

انظروا اليه كذلك فى صورة أخرى : يفاوضه عن قومه عتبة بن ربيعة بجانب الكعبة ، فيقول له : يابن أخى ، انك منا حيث قد علمت ، من البسطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال محمد : قل يأابا الوليد . قال عتبة : ان كنت انما تريد بما جئت به مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لانقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ قال له محمد : استمع منى يأابا الوليد :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت

آياته قرآنا عـربيا لقـوم يعلمون . بشـيرا ونذيرا فأعـرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ومضى يتلو عليه ، وكان ذلك كل جوابه لما عرضت قريش .

فلو لم يكن الحق الذى ملأ نفسه هو مطلبه الأسمى ، لوجد فى رفق قومه المخاصـمين له ما يطفىء من حماسته ، ويسـكن من ثورته على دينها وآلهتها .

ثم انظروا الى محمد فى بيته بين خديجة وبناتها وخدمها قريرا منعما . فهى من أغنى قريش ، وأوسطهم نسبا ، نما مالها بين يديه ، فخلا من هموم الدنيا ، ومطالبها الملحة ، وهاكم دليلا على طيب المعـاشرة والمحبة فى بيت محمد : قصة زيد بن حارثة .

هذا رجل من العرب استرق ، فاشترته خديجة ، ووهبته لمحمد عبدا مملوكا . فأعتقه وعاش فى بيته ، فاستدل عليه أبوه ، وجاء ليفـديه ، فقال محمد لأبيه : انه حر فليختر ما يشاء ، فآثر زيد محمدا على أبيه .

ومثل آخر يدل على حاله فى نظر أعرف الناس به ، وهى زوجه . لما جاءه الوحى لأول مرة ، ورجع اليها خائفا وجلا ، تلقته بهذه الكلمة : كلا . والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ففى قـولها وفعلها كل الدليل على ماكان فى بيت محمـد من الهناءة المنزلية . فما الذى أخرجه اذن من دعة هذا البيت وسكونه ، الى الثورة على دين مكة ، يلقى فيها الأذى والاضطهاد ؟

لاشك أن الذى أخرجه هو شىء أعز عليه من زوجه وبنيه ، وعشيرته التى تؤويه ، ذلكم هو الايمان بالحق الذى دعا اليه ، والذى لا يبغى غيره ، ولا يعيش الا له .

تلكم نفس محمد ، خلقها المتجلى فى كل صورة من صورها ، حب الحق والثبات عليه .

لقد سألت مـرة — ونحن فى قطار فى لنـدرة — أحـد كبار العلماء المستشرقين : هل تظن أن محمدا كان يقول قولا لا يؤمن به ؟ فقال : لا ! ان أمرا واحدا لاريب فيه ، وهو أنه كان صادقا مؤمنا ايمانا كاملا بما يقول، وبما يدعو اليه .

تلك هى الصفة التى لا ينكرها على محمد عدو ولا صديق .

فالحق فى ذاته هـو الغاية التى دأب وراءها ، وخاصم وابتلى وهاجر وقاتل لها . والناس جميعا طلاب للحق ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وقد ضرب لهم محمد المثل الأعلى .

ولا يزال رسول الله فى ميدان البطولة ، تمـر بين يديه أبطال العرب وغير العرب ، كما تمر مئات السنين ، وهو المثل الأعلى للثبات على الحق ، والدعوة الى أن يكون الناس كافة لله عبيدا ، وفيما بينهم اخوانا .

شجاعته

حديثنا هنا يرمى الى تصوير الشجاعة التى انطوت عليها نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، تلك الشجاعة المنقطعة النظير . وقد آثرت أن أصور حالة المجتمع العربى وقت ظهور الدعوة ، ومقدار نفور القوم منها ، ليدرك الناس مدى الكفاح الذى كافحه محمد ، ومقدار ما يلزم لمثل هذا الكفاح من الشجاعة . كما آثرت سوق أمثلة من مواقفه صلى الله عليه وسلم ، تبين بسالته محاربا ، وشجاعته النفسية مصلحا دينيا ، وسياسيا ، واجتماعيا .

جاء محمد لقومه بدعوة ، فى قبولها قلب حياتهم رأسا على عقب . لم تكن تلك الدعوة تتناول دينهم وحده ، بل شملت حياتهم فى جميع مظاهرها : فى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى المال ، وفى البيت . ولم يكن طبيعيا ولا مألوفا أن ينكروا ما وجدوا عليه آباءهم وبلادهم طواعية ، فكان اذن لابد لهم من رد هذه الدعوة ، وقهر صاحبها ، ليرجع الى الصف الذى خرج عنه ، فيعظم حرماتهم التى يعظمون .

كانت مكة للعرب محط الرحال ، ومصدر الهدى ، اليها يحج الناس خاشعين ، وفيها قريش سدنة الكعبة ، وحماة البيت ، أتاحت لها تلك المكانة الممتازة أن ترحل فى الصيف الى الشام والعراق ، وفى الشتاء الى اليمن ، آمنة على نفسها وأموالها وتجارتها ، فأثرت واعتزت ، وامتن الله عليها بقوله : « لايلاف قريش ايلافهم . رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

فقريش الآمنة ، العزيزة الجانب المثرية ، لاشك تعادى من يريد لدينها تبديلا ، ولنظامها تغييرا ، ومحمد يدعو أولا الى التوحيد ، وينذر ثانيا

بالبعث ، فلا هي راضية باله غير آلهتها ، ولا هي واجدة في البعث والحساب الذي ينذرها به ما تعقله أو ترضاه .

وعبادة الأوثان ، وان بانت لنا الآن بعد مئات السنين من قبول التوحيد غريبة منكرة ، لم تكن كذلك في عهد محمد ، بل كانت اليهودية والنصرانية محل سخرية العرب ومقتهم ، وكانت الوثنية مستقرة في نفوس القوم .

والعجيب من شأن هذه الوثنية التي يأباها العقل ، أنها قريبة لغرائز البشر ، فقد ارتد اليها بنو اسرائيل سراعا في غيبة موسى ، وقالوا : « اجعل لنا الها كما لهم آلهة » .

وعبد المصريون القدماء آلاف السنين أنواعا من الأوثان والكواكب والحيوان ، فليس بعجيب أن نرى قريشا يعز عليها فراق ما عبده آباؤها جيلا بعد جيل .

ولو أن محمدا قصر دعوته على التوحيد ، وتسفيه أحلام القوم ، لكفى بذلك اعناتا ، ولكنه دعا كما قلت الى الايمان بالبعث ، فاستغربوا ذلك . واستبعدوه كل الاستبعاد ، وقالوا : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » .

سخروا من هذه الفكرة ، واستدلوا بها على ضعف رأى صاحب الدعوة . مشى اليه يوما أبي بن خلف بعظم بال ، فقال : يامحمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا ! ثم فته بيده ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله . فرد القرآن على ذلك بقوله : « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

صدمت الدعوة الى التوحيد والبعث دين قريش وعقلها فسخرت من الداعي ، ثم هبت الى الايذاء والعدوان .

لم يكتف محمد بدعواه هذه الغريبة في رأى القوم ، بل زاد عليها أن دعا الى تحريم الخمر ، والزنا ، والميسر ، والربا . وقريش لاتستغني عن هذه الأربعة ، ففيها متعهم ، وفيها تفاخرهم ، وفيها غناهم وثروتهم .

فربا قريش كان فى القبائل كلها ، ومحمد يريد أن يحرم عليها ما تعده من طيبات الحياة ، ومصادر الثروة ، فأنى لها أن تستطيع على ذلك صبرا ؟ .

ولكى تتصور تمكن الخمر والزنا والميسر والربا من نفـوس القوم ، أسوق لكم مثلا ، تعلمون منه كيف كانت الرذيلة سلاحا فى يد قريش ، تنفر به العرب من دعوة محمد : جاء أعشى قيس الى مكة يريد الاسلام ، ويمدح الرسول بقصيدة يقول فيها :

وآليت لا أرثى لها (١) من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
نبى يرى مـالا ترون وذكـره أغار لعمرى فى البـلاد وأنجدا

فلما كان بمكة ، أو قريبا منها ، اعترضـه بعض المشركين من قريش ، فقال له : يا أبا بصير (٢) ، انه يحرم الزنا ، فقال الأعشى : والله ان ذلك لأمر مالى فيه من أرب فقال له : ياأبا بصير ، فانه يحرم الخمر ، فقال الأعشى : أما هذه فوالله ان فى النفس منها لعلالات ، ولكنى منصرف ، فأتروى منها عامى هذا ، ثم آتيه فأسلم ، فانصرف ، فمات فى عامه ذاك .

لم يكتف محمد بالتوحيد ، والبعث ، وتحـريم بعض ما طاب لنفوس القوم ، بل دعا كذلك الى أمر غريب مستنكر لديهم ، ذلك هو حق المساواة ، وهم الذين قضوا أعمارهم فى التفاخر بالأحساب والأنساب . فما بال محمد يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد ، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط ؟ انها للكبيرة التى لن ترضى قريش أن تقره عليها ، قريش التى أنفت أن تسوى بالناس ، فحرفت لذلك دينها ، وأنفت أن تقف على عرفة ، وأن تفيض منه كما يقف الناس ويفيضون ، وهى تعلم أن ذلك من مشاعر ابراهيم وفرائض الحج .. قريش التى ألزمت العـرب ألا يطـوفوا بالبيت فى أثواب جاءوا بها من البدو ، فطافوا عراة .. قريش التى كانت تختص بأنواع الامتياز

(١) ناقتـه .
(٢) كنية الأعشى .

التى جعلتها لنفسها كما تشاء ، كيف ترضى لمحمد أن يدعو للمساواة المطلقة ، وأن يقول لعشيرته : يابنى هاشم لا يجئنى الناس بأعمالهم وتجيئونى بأنسابكم ..

بل من الغريب أن محمدا ، وهو فى بيت الرياسة من قريش ، وفى طليعة المتازين ، رفض فى الجاهلية ضروب هذا الامتياز ، وسوى نفسه ببقية الأمة قبل أن يكون رسولا يوحى اليه .

لم تستطع قريش صبرا على الدعوة الى المساواة ، فبطشت بالعبيد ، وقست على المستضعفين الذين وجدوا فى قول محمد انصافا .

ولم يكتف بأن عاب أوثانها ، وأنذرها ببعث وحساب شديد ، وقوض جاهها وسلطانها ، وحرمها شهواتها والاتجار بالربا ، وسوى بينها وبين العبيد والمستضعفين بل قام يطلب لهؤلاء العبيد والفقراء وأبناء السبيل حقا فى أموال الأغنياء : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » يؤخذ منهم قسرا ، ويضرب عليهم ضريبة ، وما كان أبغض الى نفوس القوم من ضريبة يؤدونها مفروضة ! فلما مات الرسول كانت تلك الضريبة أول ما عصوا عليه ، وارتدوا من أجله .

ذلك مجمل من القول يصور لكم حالة المجتمع الذى قام فيه محمد داعيا الى الله ، والى نظام سياسى واجتماعى بغيض الى القوم . وقد صور ذلك القرآن فى أبدع ايجاز بهذه الآية : « وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » .

اذا تصورتم ذلك كله ، أدركتم ما ينبغى لمثل هذا الكفاح من الشجاعة والصبر ، والشجاعة والصبر هما عماد البشرية ، يمسكانها على الأرض كما تمسكها الجبال أن تميد بمن عليها . وقد ضرب الأبطال والشهداء للناس أمثلة فى الشجاعة هى النور فى تاريخ الحياة ، يهدى الى الحق والى صراط مستقيم . وقد امتحنت شجاعة معلم الأبطال صلى الله عليه وسلم طول حياته ،

فما تطرق اليها وهن . هذه الشجاعة لازمته منذ الصبا ، فهو فيها المجلى فى الجاهلية والاسلام .

استحلف مرة وهو صبى باللات والعزى ، فقال : لا تسألنى بهما شيئا ، فوالله ما بغضت شيئا بغضى لهما .

هذا الصبى يتحدث بهذه الجرأة عن آلهة القوم ، لا يخشى بطشا ، وهو المشهور بالحياء ، حتى قيل فيه : انه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها .

خرج الى اليمن فى قافلة مع عميه ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، فرأوا فى واد فحلا من الابل ، قد توحش وجمح ، فتعرض له محمد وكبح جماحه .

وفى حرب الفجار وهو دون العشرين كان ينبل على أعمامه .

واعترض القافلة واد ملىء ماء ، فهابته الجماعة ، فتقدم وقال : اتبعونى، اتبعونى .

هذه أمثلة من جرأة الصبا ، ولكن الأمثلة التى نريدها ، والتى ينحنى لها أبطال العالم اكبارا واجلالا ، هى تلك التى ضربها بعد الرسالة ، وبعد أن جهر بالدعوة وقال الله له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » . قال على : كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه .

وهاكم حادثتين ، هما عندى المثل الأعلى فى شجاعة المحارب :

فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل صوت ، فتلقاهم رسول الله راجعا ، وقد سبقهم الى ذلك الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس عرى ، والسيف فى عنقه ، هو يقول : لن تراعوا .

ويوم حنين وقف على بغلته ، والناس يفرون عنه ، وهو يقول :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فما رئى أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدو .

ولقد اخترت هاتين الحادثتين من تاريخ طويل ، لأن الأولى منهما هب فيها رسول الله الى مكان الخطر ، قبل أن يتحرك الناس ، وفى الثانية ثبت فى مكان الخطر وقد فر الناس . والذين لهم علم بالحرب يعرفون أنه بهذين الموقفين تمتحن الشجاعة ، فليس أصعب على النفس من السبق الى الخطر ، ولا من الصبر عليه وقد استولى الخوف ، وغلب الرعب .

هذه الشجاعة التى امتاز بها أبطال الأمم ، والتى كان لمحمد فيها النصيب الأوفر ، ليست عندى الشجاعة التى اختص بها رسول الله ، والتى هى أعلى صفات البطولة . ولكن شجاعته حين خرج على قومه مفاجئا بالدعوة التى كرهوها ، وشجاعته وهو يصابر على الأذى والسخرية ، وشجاعته وقد تعاهدت قريش فى صحيفة علقت بالكعبة على مقاطعة عمه أبى طالب ، ومن تبعه من بيت هاشم والمطلب ، لحمايتهم له ، فبقوا فى الشدة ثلاث سنين ، وهو على هذا ، دائب على أن يصلى فى البيت ويجهر بالقرآن ، وشجاعته وقد بعث أنصاره الى الحبشة فرارا من الأذى والموت ، وصبره هو بعدهم وحيدا يتعرض للأذى والموت ، وشجاعته وقد مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة فى أيام متتابعات ، وكان فى عمه وزوجه النصير والوزير ، ثم يبقى بعد ذلك قائما بمكة ، تمر الحادثات عليه كأنها الأعاصير تعصف فى ذروة الطود الراسخ ، وثباته فى الموقف وحيدا اذ يعرض نفسه على القبائل ، ويلقى السخرية وأشنع الرد بالقول والفعل حتى اذا ما انصرف كل أنصاره مهاجرين ليثرب ، جاء البيت يوما بعد يوم يقيم صلاته ونسكه جهرا ، ويتلو القرآن جهرا .

تلك صور لو رسمت وعرضت ، لكانت أبهج ما تنشرح له صدور الأبطال فى كل جيل وأمة ، ولجعلت امامته فى الشجاعة النفسية مرضية للأجناس والأديان : سودا وبيضا ، موحدين ومشركين .

تلك الشجاعة النفسية أو الأدبية التى لا تهن للسخرية ، ولا تذل

للوعيد ، ولا تطيش للوعد ، والتى أمسكت الخلق المحمدى ، فكانت سنده الذى لا يتزلزل ، هى شجاعة مقطوعة النظير فى تاريخ البشر .

انظروا اليه وقد سلطوا عليه سلاح السخرية ، وهى أفتك ما يكون بالعزيمة ، وأقتل ما يكون لحماس الرجال ، هى أفتك من الأذى والاضطهاد .

وقف مرة على الصفا ينادى قريشا ، فلما جاءوا يستمعون أنذرهم حساب الله فتركوه وانصرفوا ، ولم يزد أبو لهب على أن قال : تبا لك ! ألهذا دعوتنا ... ؟

كانوا يتواصون فيما بينهم : « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

فهم كانوا يعلمون أن سلاح الهزء والسخرية أنكى على الدعوة من الاضطهاد والأذى ، فلم يغفلوا عن هذه السخرية ، فلما أشار القرآن الى شجرة الزقوم تخويفا لهم ، ازدادوا بها طغيانا ، وقال بعضهم مستهزئا يا معشر قريش ، أتدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ انها عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمسكنا بها لنتزقمنها تزقما ..

ولما أشار القرآن الى جهنم ، وأن عليها تسعة عشر من الزبانية . قال أبو جهل وهو يهزأ برسول الله : يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ، ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر عددا ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فنزّل القرآن : « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا » .

كان الرسول اذا جلس مجلسا يعظ الناس خلفه فى مجلسه « النضر بن الحارث » وكان قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فيقول : يامعشر قريش . أنا والله أحسن من محمد حديثا ، فهلموا الى ، فأنا أحدثكم ، وأنزل مثل ما أنزل الله ، ثم يحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك الفرس .

انظروا أيضا الى هذه السخرية بمحمد وأتباعه :

ذهب خباب بن الأرت أحد المستضعفين من أصحاب رسول الله ، وكان صانعا للسيوف ، ذهب يتقاضى من العاص بن وائل ، أحد عظماء مكة ، أجر ما صنع ، فقال له : ياخباب أليس يزعم محمد صاحبكم أن فى الجنة ما ابتغى أهلها ؟ قال خباب : بلى ، قال : فأنظرنى الى يوم القيامة ياخباب ، حتى أرجع الى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لاتكونن أنت وأصحابك ياخباب آثر عند الله منى ولاأعظم حظا .

وكان الوليد بن المغيرة قد انفرد بالرياسة فى مكة ، وأبو عروة بن مسعود الثقفى قد انفرد بالرياسة فى الطائف ، فكانوا يقولون تهكما : « لولا أنز لهذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » تصغيرا من شأن محمد ، وزراية به .

لم تزدهم هذه السخرية على اضرارها بالدعوة الا غفلة . ولا زادته الا صبرا واستبسالا ، فمرت السنون على هذا التهكم والأذى ، والشجاعة النفسية تسنده ، وتعلو به ، وتقر هيبته ، وتلقى الرعب فى نفوس أعدائه .

فلما تحطمت أسلحة السخرية والأذى على جنبات النفس الأبية ، وتآمر المشركون على قتله ، خرج مستخفيا مهاجرا ، فكان وهو فى الغار يقول لصاحبه : « لاتحزن ان الله معنا » .

وابتدأ بذلك دور الصراع ، الذى لمع فيه السلاح ، كما لمعت النفس التى صقلتها الشجاعة ، فعرف رسول الله كيف يصبر ويرضى ، وكيف يثور ويغضب ، وبقى خالدا تنطوى صفحات الأبطال ، وصفحته منشورة تقرأ فيها آيات الشجاعة والصبر ، ويظل بها رسول الله المثل الأعلى .

وفاؤه

نتحدث هنا فى وفاء بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم ، وفائه لأعدائه ، ووفائه لأصدقائه .

والوفاء هو القوام لمكارم الأخلاق . به تستقيم الحياة ، وهو ميزان المروءة ، ومقياس الفضل فى الأفراد والأمم ، ولو دان به النـــاس لوجدوا السعادة كاملة .

يحدث الوفاء فى نفس الوفى من الغبطة مالا حد له ، وفى نفس الموفى له الرغبة فى البر والمروءة ، واصطناع المعروف عند الناس . والأمم الوفية تبتغى صداقتها ، ويرغب فى معاهدتها ، ويوفى لها بذمتها .

انظروا الى العالم المضطرب الذى نعيش فيه ، أليس عدم الوفاء قوام هذا الاضطراب ؟ اذا كان الحليف لا يأمن عهد حليفه ، فأنى لأحدهما أن يستقر الى ضمان من هذا العهد ، يقيه مظنة السوء ، ويكفيه شر الخوف ، ويوفر عليه نفقات الاستعداد ليوم الغدر .

لو أن العهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، لما هبط العالم الى حياة الدس والكيد ، والذمم المخفورة ، والجوار المنتهك . ولو سار المسلمون على النهج الذى نهجه ، واقتدى بهم غيرهم ، لوضعت العلاقات الدولية على أثبت القواعد التى تكفل السلم ، وتضمن الانصاف ، وتستبقى الكرامة للناس جميعا . انظروا الى هذه الأمثال نسوقها ، لتروا صورا من الوفاء ، هى أروع ما ينظر اليه الناس .

قبل سنة من هدنة الحديبية ، كانت قريش تحاصر المدينة ، وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب ، فنقض بنو قريظـــة عهدهم مع

رسول الله ، واشتد بذلك الكرب ، وزلزل المؤمنون زلزالا شـديدا ، ولكن الله نصر عبده ، وأعز جنده ، وألقى الرعب فى قلوب المشركين ، ولم تمض الا فترة وجيزة حتى كان جيش الاسلام بقيادة رسول الله يزحف الى مكة ، فنزل الحديبية ، وبعثت قريش رسلها الى محمد صلى الله عليه وسلم .

وهاهو ذا عروة بن مسعود الثقفى رسولها يعود اليها ، يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة : انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمـد فى أصحابه .!

كان محمد فى منعة وقوة ، ولـكنه كان يعلن أنه لايريد الحـرب ، ويقول : لاتدعونى قريش اليوم الى خطة يسـألوننى فيها صـلة الرحم الا أعطيتهم اياها . فلما جاءه سهيل بن عمرو مفـوضا من قريش لعقد هدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن ، وهو أن محمدا يسلم الى قريش من لجأ اليه من المسلمين بغير اذن وليه ، و لايطلب تسليم من لجأ الى قريش من أتباعه .

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى ان عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة الى أبى بكر ، وأخرى الى الرسول ، ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألست رسول الله ! فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فيقول محمـد : أنا عبـد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ، ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبول المسـلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركـوا سره ، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم . وبينما هم على هذه المضاضة ، وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوض قريش « سهيل بن عمرو » ، ولم يكتب العقد ، ولم يمض، جاءهم أبو جندل مستصرخا يرسف فى قيوده .

وأبو جندل هذا هو ابن سـهيل بن عمرو نفسـه ، وقد انفلت الى المسلمين من أيدى المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام اليه ، وأخذ بتلابيبه ،

وقال : يامحمد ، قد لجت القضية بينى وبينك (أى فرغنا من المناقشة) قبل أن يأتيك هذا . قال محمد : صدقت . وأبو جندل ينادى : يا معشرالمسلمين ، أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

تصوروا ذلك المقام ، مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الشجاع الذى حدثتكم عن شجاعته المقطوعة النظير ، وهو القوى الذى خرج من المدينة زاحفا بجيش سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له ، تصوروه وهو يرى أقرب أصحابه يكاد يجنح الى العصيان ، ثم تصوروا لاجئا يرسف فى القيود ، وهو من أبناء الأعزة فى قريش ، يرسف فيها لمحمد ودين محمد ، ثم انظروا اليه صلى الله عليه وسلم لا يحتال ولا يتردد ، ولما يكتب ، ولما يمض ، يقول لسهيل : صدقت ، لقد لجت القضية ، ويرد صاحبه باكيا الى أعدائه !.

تصوروا كل ذلك ، ثم ليكتب الى من شاء بمثل واحد فى تاريخ البشر كله كهذا المثل ، يضربه محمد فى رعاية الكلمة التى قالها ، ولما تكتب ، ولما تمض .

ذلك هو أعلى الأمثال فى الوفاء بعهد العدو .

بل أرسل الله محمدا بشريعة فى الوفاء ، تجعل حق الميثاق فوق حق الدين ، نفسه ، فقد جعل الدية للمشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد ، ولم يجعل دية للمسلم من قوم ليس بينهم وبين المسلمين عهد .

وكذلك حرم نصرة المسلم للمسلم على من بيدهم ميثاق المسلمين من أهل الملل الأخرى ، فقد جاء فى القرآن : « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » . ذلك هـو التقـديس للعقود والمواثيق ، الذى يبقى أبد الدهر فيه الهدى للناس جميعا .

هذا وفاؤه لأعدائه اذا عاهدهم . والآن انظروا معى الى وفائه لعدو قد قتل فى حربه :

كان مطعم بن عدى من أشراف قريش ، وكان رسول الله حين رجع من الطائف ، ولقى من ثقيف منكر القول والفعل ، طلب جوار بعض رؤساء

مكة ، ليدخلها آمنا على حياته ، فأبوا ، وقبل مطعم أن يدخلها فى حمايته ، فلما كانت وقعة « بدر » بعد ذلك ، ودارت الدائرة على قريش ، وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدى ، فقال فيه حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى ... بدمع ، وان أنزفته فاسكبى الدما
وبكى عظيم المشعرين كليهما ... على الناس معروف له ما تكتما
فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا ... من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبى مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها ... وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بجيرة جاره ... وذمته يوما اذا ما تذمما
فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعز وأعظما

ذلكم رثاء حسان لرجل من المشركين ، مات يحارب محمدا وصحبه ، يستمع اليه صاحب الدعوة ، ويسره أن يرى المسلمين يرددونه .

أرأيتم وفاء كهذا وسعة صدر ؟ أرأيتم بطل الأبطال يسمو الى أعلى ما تصل اليه الرجولة والانسانية الكاملة ، فيبكى المروءة فى عدو هو أحد صرعاه فى القتال ؟ ذلكم هو الوفاء الذى علا فوق كل شيء .

ثم انظروا الى وفائه للمشركين أيضا : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل فى عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل فى عقد قريش وعهدها ، فدخلت خزاعة على شركها فى عهد محمد . فلما نقضت قريش عهدها معه ، ونصرت حليفتها بكرا عليها : ذهب عمرو بن سالم الخزاعى يطالب بالعهد ، ويطلب نصر حلفائه ، فوقف على رسول الله ، وهو فى المسجد ينشده ويقول :

يارب انى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا ... ان قريشا أخلفوك الموعدا
* ونقضوا ميثاقك المؤكدا *

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين ، سببا فى الاتجاه الى فتح مكة ، فأسرع رسول الله بالتجهز والزحف عليها .

هذه أمثلة سقناها من وفاء بطل الاسلام صلى الله عليه وسلم لأعداء الملة ، وقد عاهدهم ، أو ذكر لهم صنيعا ، أو قبل محالفتهم على غيرهم .

ووفاؤه لأصدقائه هو الذى نستنفد فيه القراطيس ولا ننتهى ، فحياته منذ الصبا هى البر والوفاء .

يقول عبد الله بن أبى الحماء : بايعت (١) محمدا ، ووعدته أن آتيه فى مكانه ، فنسيت ، فذكرته بعد ثلاثة أيام ، فاذا هو فى مكانه ، فلما رآنى لم يزد على أن قال : لقد شققت على ، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك ، وكان ذلك فى الجاهلية قبل أن يبعث محمد .

وروت عائشة : أن عجوزا جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : جثامة المزنية ، فقال : أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت : بخير ، بأبى أنت وأمى . فلما خرجت قلت : يارسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ! قال : انها كانت تأتينا زمن خديجة ، وان حسن العهد من الايمان .

وبعد وقعة حنين ، وفيها كادت هوازن تقضى على الاسلام لولا ثباته صلى الله عليه وسلم ، جاءه وفد منها ، وهى الباغية المستكبرة ، تطلب العفو عن أسراها ، فماذا وجدت لتحرك به رحمته ، وتستثير شفقته ؟ لا شىء ، فليس أشد سوادا من ماضيهامعه ، ولكنها وجدت فى وفائه ملجأها ومنتهاها ، فقال رجل منهم : يامحمد ، ان فى الحظائر مرضعاتك وحواضنك ، ولو أنا ملحنا (٢) للنعمان بن المنذر ، أو الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ثم نزل منا مثل الذى نزلت ، رجونا عطفه وعائدته علينا . فقال عليه السلام : أما

---

(١) بايعت : أى بعت له شيئا .
(٢) أى أرضعنا .

ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون والأنصار : ماكان لنا فهو لرسول الله . وبذلك رد على هوازن آلاف الأسرى . تلك هى النفس الوفية ، التى تكرم أمة ظالمة مغلوبة وفاء للبن الذى رضعته فيها ، فهل للناس وقد عفا فيهم أثر المعروف أن يتذكروا ؟

ثم اليكم هذه الحادثة ، فقلبوا تاريخ القادة فى العالم أحياء وأمواتا ، ثم اذكروا محمدا وصلوا عليه :

كان يتجهز فى المدينة لفتح مكة ، وكان يخفى أمره ، حتى على أبى بكر وعائشة ، فلما أعلن العزم ، سارع حاطب بن أبى بلتعة الى امرأة استأجرها ، وكتب لها كتابا الى قريش ، وضعته فى شعرها ، وفتلت عليه قرونها ، فعلم رسول الله ، وأخذت المرأة فى الطريق ، فلما سأل حاطبا ما حمله على فعله ؟ قال : يارسول الله ، أما والله انى لمؤمن ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ! فقال رسول الله : وما يدريك ياعمر ؟ لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! فأنزل الله فى حاطب : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » .

تأملوا فى هذا ، ان وفاء محمد لأصحابه الذين نصره الله بهم فى بدر ، جعله يرجو أن يكون الله قد غفر لحاطب حتى هذه الفعلة .

ثم كان رسول الله فى مرض الموت ، فلما اشتد به خرج الى أصحابه ، فصعد المنبر ، وقال : يامعشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيرا ، فان الناس يزيدون ، وان الأنصار على هيئتها لاتزيد ، وانهم كانوا عيبتى التى أويت اليها ، فأحسنوا الى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم .

ثم انظروا أخيرا الى مقام الوفاء من نفسه ، وهو يقول يوم أحد حين أمر بدفن القتلى : انظروا الى عمرو بن الجموح ، وعبـــد الله بن عمرو بن حرام ، فانهما كانا متصافيين فى الدنيا ، فاجعلوهما فى قبر واحد .

ذلكم هو الوفاء الذى نحن فى أشد الحاجة اليه ، ولن يستقيم أمر العالم حتى يتذوقه الناس ، وحتى يؤمنوا به ايمان محمد وأصحابه .

زهده وقناعته

زهده وقناعته صلى الله عليه وسلم ، قد ضرب فيهما المثل الأعلى للناس جميعا ، للراعى والرعية ، والأفراد والجماعات . انظروا الى العالم الذى نعيش فيه ، فانه يشكو الجشع الذى أصاب أهله ، فلا الغنى قانع بآلافه وملايينه ، ولا الفقير راض بالكفاف من العيش ، فالمالكون لأعنة المال يصرفونه فى شئون الهوى ، والأجراء كذلك يتطلعون الى المال من أجل الهوى . ليس المسيطرون أقل رغبة فى اللهو ممن هم دونهم ، فقد تساوى الأمير والحقير ، وجعلوا هدف الحياة وغايتها شهوات النفس ، ومتاع العيش .

انظروا يمينا ويسارا فى كل البيئات ، بل فى العالم أجمع ، هل ترون الا خلقا قد انطلقوا للدرهم والدينار ، لا يلوون على شىء ، وانصرفوا لعبادة المال ؛ فملك قلوبهم ومشاعرهم ، وأصبح رفيقهم فى حركتهم وسكونهم ؟

وهل ترون الا صراعا بين أمم اتخذت حب المال والغلب عليه غايتها ، فهو لها الأول والآخر ، والظاهر والباطن ؟ وهل ترون الا طبقات من الأمم تتطاحن ، ليس لها مطلب الا السبق الى المتاع ، واختطاف بعضها ما فى أيدى البعض ؟ وهل ترون الا أفرادا من فاز منهم بالغنيمة تنحى بها جانبا ، وأرخى لهواه العنان ، فى قصور مشيدة ، وجنان ، ومراكب ، ومواكب ، ومتاع ، وغرور ، والناس ينظرون اليهم مع الحسد والاعجاب ، لا يسألون أنفسهم شيئا عن أصل هذا أو مصيره ؟

تلك الأمم والطبقات والأفراد فى صراعها على مواد الحياة قد هوت الى الحيوانية ، ليسوا فيها الا كالقطيع يتزاحم ويتطارد ، ليحظى بالعشب ، أو الكلاب تتهارش وتتخاطف العظام .

هوى الانسان فى سبيل المال والهوى الى الدرك الذى جاء الأنبياء والرسل جميعا ليرفعوه عنه ، ويوجهوه وجهة أسمى من المحسات ، وجهة معنوية مقتصدة فى رغبات البدن الزائل ، متطلعة الى مطالب الروح الخالدة

جاء بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، والناس على مثل هذه الحال لا يعرفون فضلا الا للأموال والأحساب ، ولا يدركون من لذة التقوى ومتاع الروح شيئا ، فضرب مثلا من نفسه فى القناعة والزهد واحتقار الدنيا ، صرف الناس عما هم فيه ، وأخرج الصحابة الزهاد الذين جعلوا للحياة الروحية المقام الأول ، فاتخذوا الدنيا مطية الى ما هو أسمى منها .

ضرب محمد عليه السلام المثل من نفسه ، فى فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، ضربه وهو محاصر مع أهله فى الشعب ، وضربه وهو ملتجىء الى المدينة ، وهو يقيم دولة الاسلام فيها ، وبعد أن أقامها ، وبعد أن ملك الأموال والرقاب فى جزيرة العرب كلها ، فكان يهب هبات الملوك فيعطى الغنى ، ويرجع الى داره وفراشه فيها الحصير وطعامه خبز الشعير .

قال ابن مسعود : دخلت على رسول الله وقد قام على حصير ، وقد أثر فى جنبه ، فقلت : يارسول الله ، لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير ، يقيك منه ؟ فقال : مالى وللدنيا ! ماأنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

وعن قتادة بن النعمان قال : قال رسول الله : اذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء .

تلك نظرة بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم الى الحياة الحسية ، تلك النظرة السامية التى اخترقت حجب هذه الدنيا ، فلما كثر أتباعه ، وانتشر

دينه ، فتحت القلوب الى ما هو أوسع من البطن والفم والأنف ، وسمت النفس الانسانية فوق تلك الحجب ، فتجلى لها النور الالهى ، واتسع الأفق ، وأضاءت الأرواح العلية هذا الوجود ، فشهد العالم دولة الصدر الأول للاسلام ، فيها المثل الكامل للزهد والقناعة والعدل والمساواة والمعروف وطيب العيش ، فيها مثل أبى بكر وعمر وهما فى أثواب مرقعة ، يحسدهما كسرى وقيصر .

وهل كان عمر فى الثوب المرقع على الأرض أقل متاعا بالحياة من المترفين الجبابرة ؟ كلا ، انما هو نوع آخر من اللذات ، أبعد من الحيوانية ، وأدنى الى الانسانية ، ذلك هو متاع الروح التى فرت الى الله ، والى أسمى الحياة الوجدانية ، وذلك أبعد أثرا فى النفس ، وأحسن عاقبة للأبدان ، وأحب الى وجودنا البشرى .

تلك المدرسة المحمدية مدرسة القناعة والزهد ، أخرجت ولاة وحكاما للشعوب ، يقنعون بدرهم فى اليوم أجرا ، ويقيمون الولاية والملك على أحسن ما يرضى الله والناس .

يروى ابن هشام عن زيد بن أسلم : لما استعمل رسول الله عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام وخطب الناس ، فقال أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله درهما كل يوم ، فليست لى حاجة الى أحد .

هل ترون خلال هذه الخطبة الا رجلا فرحا برزقه ، قد ضمن العيش بدرهم ويريد أن يفرغ الى ماهو فوق العيش ! هذه هى القناعة ، التى تلقاها الصحابة من المعلم الأكبر .

انظروا الى محمد نفسه ، خرج مرة من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر ، فسألهما عن خروجهما ، فقالا : أخرجنا الجوع ، قال : وما أخرجنى الا الجوع ، فذهبوا الى أبى الهيثم ، فأمر لهم بشعير ، وقام الى شاة فذبحها ،

واستعذب لهم ماء معلقا عنده فى نخلة ، ثم أتوا بالطعام ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : لنسألن عن نعيم هذا اليوم !

كان النبى معروفا بفرط الحب لأولاده ، حتى ان فاطمة بنته كانت اذا دخلت عليه قام اليها وقبلها ، وأجلسها مكانه ، ومع ذلك كانت تعيش عيشة الفقراء ، وتشكو من آلام الرحى ، وتجرح يدها أحيانا من حمل الماء ، فطلبت اليه يوما خادما من الأسرى فأبى .

وروى أنه قال لعلى : كيف تطمعون فى شىء من هذا ، وأهل الصفة على ماهم عليه من الفقر ! ودخل على فاطمة وفى يدها سلسلة من ذهب ، وهى تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن ، فقال صلى الله عليه وسلم : يافاطمة ، أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ؟ ثم خرج ولم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها ، واشترت بثمنها عبدا ، فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار .

ذلك هو الزهد الذى علمه بطل الأبطال أهل بيته وصحبه والناس جميعا . وان فاطمة ، وقد باعت السلسلة ، وأعتقت العبد ، قد تمتعت ولا ريب بلذة وجدانية ، وطمأنينة نفسية ، أبعد أثر فى تشييد بيت السعادة ، من تلك السلسلة من الذهب فى عنقها ، تفخر بها على صاحباتها .

روى البخارى عن عائشة أنها قالت لعروة : يابن أختى ، ان كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار .. فقلت : ياخالة ، ماكان عيشكم ؟ قالت :الأسودان: التمر والماء ، الا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار كانت لهم منائح (١) ، وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانها فيسقينا .

وقد ذكر مرة وهو فى الصلاة : أن فى بيته تبرا ، فخفف الصلاة ، وسارع الى التبر ، ففرقه على الفقراء ، كراهة أن يبيت الذهب فى بيته .

---

(١) المنائح جمع منيحة ، وهى الشاة تعار لينتفع بها .

قال عقبة بن الحارث : صلى بنا رسول الله العصر فأسرع وأقبل يشق الناس من سرعته ، ودخل الى بيته ، ثم لم يكن بأوشك من أن خرج ، فقال : ذكرت شيئا من تبر كان عندى ، فخشيت أن يحبسنى فقسمته . هذا الذى يقسم التبر بين الناس هو الذى تقول عائشة أيضا عن حال أهله : ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثا ، حتى قضى لسبيله ، وما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد الا احداهما تمر . ويقول أنس : قال رسول الله : لقد خفت فى الله مالم يخف أحد ، وأوذيت فى الله مالم يؤذ أحد ، ولقد أتى على ثلاثون ما بين يوم وليلة ، وما لى ولبلال من الطعام الا شىء يواريه ابط بلال (١) .

وهاكم أمثلة من مأثور قوله فى القناعة والزهـد ، وما كان قوله الا مطابقا لعمله ، فما عـرف عن بطل الأبطال حـديث الا كان صـورة لنفسه الكريمة ، معبرا عما رضى لها من خلق وما هو عليه من فطرة .

والذين يقرءون بامعان سيرته الكريمة ، يرون مطابقة أقواله أفعاله فى كل أطوار الحياة مطابقة تامة ، فلم يكن يخشى الفقر أكثر مما يخشى الثروة والغنى ، وكان يكره الكنز ، ويقول : انه لم يترك فى بيته ثلاثة دنانير يضم اليها دينارا آخر ، الا لقضاء دين ، وكان يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا وقيل قوتا (أى لا يزيد على الحاجة) .

وعن أبى أمامة الأنصارى قال : ذكروا عند النبى الدنيا ، فقال : ألا تسمعون ، ألا تسمعون ؟ ان البذاذة من الايمان ، ان البذاذة من الايمان (أى التواضع فى اللباس ، وترك الزينة) .

وقال على : بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ طلع علينا مصعب بن عمير ، ما عليه الا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه مصعب من النعمة ، ثم قال : كيف بكم اذا غدا أحدكم فى حلة ، وراح فى أخرى ، ووضعت بين يديه صحفة ، ورفعت

---

(١) يريد شيئا يسيرا يضعه حامله تحت جناحه فلا يظهر .

أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ قالوا : يارسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نكفى المؤنة ، ونتفرغ للعبادة ، فقال : بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان صلى الله عليه وسلم يحبب الى الناس صحبة الفقراء ، حتى تنصرف آمالهم عن التطلع الى الترف والزينة . يقول عون بن عبد الله بن عتبة : كنت أصحب الأغنياء ، فما كان أحد أكثرهما منى ، كنت أرى دابة خيرا من دابتى ، وثوبا خيرا من ثوبى ، فلما سمعت قول رسول الله : اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه فى المال والخلق ، فلينظر الى من هو أسفل منه ، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم . قال ، لما سمعت ذلك صحبت الفقراء فاسترحت .

لابد أن يخطر لكم هنا هذا السؤال : ما الحد بين الغنى والفقر فى نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر أصحابه ؟ وانا محاولون أن نصوره لكم كما صورته كتب الحديث .

قال صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . وروى عثمان عنه أنه قال : ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف (١) الخبز والماء . وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له : ألك زوجة تأوى اليها ؟ قال نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال : فان لى خادما ، قال : فأنت من الملوك .

ولقد سأله أصحابه : ماالغنى الذى لاينبغى معه المسألة ؟ قال : قدر ما يغديه ، أو يعشيه .

---

(١) جلف الخبز : الغليظ اليابس ، يؤكل بغير ادام .

لذلك كان رسول الله يكره من الناس السؤال ، ويقول : لو تعلمون ما فى المسألة ما مشى أحد الى أحد يسأله شيئا ، وكان يترفع بأنصاره عن ذل السؤال .

أتى اليه رجل من الأنصار يسأله ، فقال : أما فى بيتك شىء ؟ قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء . فقال : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما اياه ، وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما الرجل ، وقال : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به ، فأتاه به ، فتسد فيه رسول الله عودا بيده ، وقال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوما ، ففعل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشتر ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة .

كان بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم مثال الرجولة ، يحب النظافة والطيب ، ويبغض الخيلاء والتظاهر ، وما يقصد به الى الترف . قال على : أخذ رسول الله حريرا فجعله فى يمينه ، وذهبا فجعله فى شماله ، فقال ان هذين حرام على ذكور امتى .

ورأى عمر مرة حلة من استبرق تباع ، فأتى بها النبى ، فقال : يارسول الله ابتع هذه ، فتجمل بها للعيد والوفود ، فقال رسول الله : انما هذه لباس من لاخلاق له .

كان سيد العرب ، ومالك الجزيرة يملأ بالأموال صحن المسجد ، فيقسمها على الناس الى آخر درهم ، فاذا دخل الى بيته نام على جلد محشو بليف ، قالت عائشة : كان فراشه من أدم حشوه ليف .

وتقول عائشة : انه كان لرسول الله حصير يحتجزه فى الليل ، فيصلى فيه ، ويبسطه فى النهار ، فيجلس عليه وكان فى طعامه قانعا زاهدا يقول : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده (١) » .

يقول أنس خادمه : ما علمت النبى خبز له مرقق قط ، ولا أكل على خوان قط .

وسئل سهيل بن سعد : هل أكل النبى النقى (٢) ؟ فقال ما رأى النبى النقى منذ ابتعثه الله حتى قبضه .

ولم يقصد رسول الله بهذا الزهد اضاعة المال ، ولا تحريم ما أحل الله لعباده من الزينة والمتاع ، فقد عرف الزهد بهذا المعنى الســـامى فى قوله : ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا اضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها ، أرغب منك فيها ، لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

وكان يحب النظافة والطيب والهيئة الحسنة ، ويحـــرص عليها . قال عطاء بن يسار : أتى رجل النبى ثائر الرأس واللحية ، فأشار اليه كأنه يأمره باصلاح شعره ففعل ، ثم رجع فقال النبى : « أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » ! ورأى رجلا عليه ثياب وسخة ، فقال . « أما كان هذا يجد ما يغسل ثوبه ؟ » وجاءته هند بنت عتبة تريد أن تبايعه ، فقال : « لا أبايعك حتى تغيرى كفيك .. كأنهما كفا سبع » . يريد أن تصلح أظفارها ، وتغير كفها بالحناء .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكريم ، جواد يحب الجواد ، فنظفوا أفنينـكم ، ولا تشبهوا باليهود » .

---

(١) الأود : الاعوجاج .
(٢) خبز الدقيق الخالص .

فرسول الله فى زهــده وقنــاعته انما كان يكره الخيــلاء والاسراف والترف ، ويحب للمسلم أن يرضى بالكفاف ، وأن يكون جوادا نظيفا .

كان بطل الأبطال فى زهده وقناعته مثلا كاملا ، صور لنا كيف يتأتى للرجل أن يعيش كريما ، يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه ، فينفقها جميعا ، وينام بعد ذلك على حصير يؤثر فى جنبيه ، فاذا أرادوا أن يتخذوا له وطاء قال : « ماأنا والدنيــا الا كراكب اســتظل تحت شــجرة ، ثم راح وتركها » .

ذكر وهو فى مرض موته أن فى بيته سبعة دنانير ، فأمر أهله أنيتصدقوا بها ، فنسوا لاشتغالهم بمرضه ، وأفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته ، فسأل عائشة مافعلت بالسبعة الدنانير ؟ فأجابت انها لا تزال عندها ، فطلبها ووضعها فى كفه ، ثم قال : « ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ! » ثم تصدق بها على الفقراء ، وقد لقى الله فى كساء ملبد ، وازار غليظ ، هو لباسه الذى قضى فيه ، ولكنه ترك وراءه نورا يشع من جبين القنــاعة والزهد ، يهدى البشر الى الحيــاة الطيبة ، ويوجههم الى ما هــو أسمى من متــاع الأبدان الزائلة ، الى متاع الأرواح الخالدة ، ولا يزال رسول الله فى قناعته وزهده قدوة الأبطال والناس جميعا ، يتطلعون الى منتهى قصده ، فلا يدركون منه الا قليلا .

تواضعه وتياسره

صفة بينة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة فى طبعه الكريم ، تلك هى : التياسر والتواضع ، فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الانسـان ، يؤتاها من صميم نفسـه ، ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة .

كان محمد التياسر نفسه يتمثل فى الرجل الكامل ، ويبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حـوله من زخرف السـيادة والملك ، وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل كان محمد قريبا هينا سهلا ، يلقى أبعد الناس وأقربهم ، وأصحابه وأعـداءه ، وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافرا .

فكانت أعماله تصدر طبيعية ، كل منها يدل على خلقه ، كما تدل الصورة على صاحبها .

واسمعوا الى عدى بن حاتم الطائى يروى قصته ، وقد قـدم اليه من الشام ، بعد أن فتحت جيوش المسلمين بلاده ، وبعد أن فر الى الروم هاربا .

يقول ، وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا فى المدينة : دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم . فقام وانطلق بى الى بيته ، فوالله انه لعامد بى اليه ، اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها ، قال : فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى بى رسول الله حتى اذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفا ، فقذفها الى ، فقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليهـا ، فقال : بل أنت . فجلست عليها ، وجلس رسـول الله على

الأرض ، قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : ايه ياعدى ابن حاتم ، ألم تك ركوسيا (دين بين النصرانية والصابئية) . قال : قلت : بلى ، قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . قال : قلت أجل والله ، وعرفت أنه نبى مرسل، يعلم ما يجهل . ثم قال : لعلك ياعدى انما يمنعك من دخول فى هـذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسـية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال : فأسلمت .

ولقد عاش عدى حتى رأى القادسية والقصور البابلية مفتحة للعرب .

هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها ، يأتيه عدى وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه ، يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة ، ويجلس هـو على الأرض ، ويحدثه بلا كلفة عما كان ، وما يعتقده كائنا . ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم ، فكسفت الشمس ، فقال النـاس : كسفت الشمس لموت ابراهيم ،فيقوم فى المسجد يقول : ان الشمس والقمر آيتـان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحـد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وصلوا وتصدقوا » .

هذه هى النفس البريئة التى تعشق الحق للحق ، وتتعالى فى تواضـع عن استغلال وهم من الأوهام ، أو مصادفة من المصادفات ، بل تأبى السكوت على سخف أو ضلال ، ولو كان من شأنه أن يبهر العامة .

وهاكم ما يروى جابر بن عبد الله عما وقع له ، قال : كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى الى الجذاذ (١) فخاست (أى تأخر ثمرها) عاما ،

(١) الجذاذ : قطع النمر .

فجاءنى اليهودى عند الجذاذ ، ولم أجد شيئا ، فجعلت استنظره الى قابل ، فيأبى ، فأخبر بذلك النبى ، فقال لأصحابه امشوا نستنظر لجابر من اليهودى، فجاءونى فى نخلى ، فجعل النبى يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم ، لاأنظره ، فقام النبى فطاف فى النخل ، ثم جاءه فكلمه فأبى ، فقمت فجئت بقليل من رطب ، فوضعته بين يدى النبى ، فأكل ثم قال : أين عريشك ياجابر ؟ فأخبرته ، فقال : افرش لى فيه ، ففرشته ، فدخل فرقد ، ثم استيقظ ، ثم جئته بقبضة أخرى فأكل منها ، ثم قام فكلم اليهودى ، فأبى عليه فقال : ياجابر ، جذ واقض ، (أى اقطع التمر ، واقض دينك) . ويقول جابر : ان الله بارك فيه فقضى الدين وزاد .

والحكاية تصور لنا تياسره وتواضعه فى سعيه بين اليهودى وجابر ، وأكله ونومه ، ولين جانبه ، فلم يزد بعد أن يئس من اليهودى على أن يأمر صاحبه بأداء ماعليه .

انظروا كذلك اليه كيف يستأذن على أحد أصحابه ، وكيف ينصرف ؟

يقول قيس بن سعد : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فرد أبى ردا خفيا . فقلت لأبى : ألا تأذن لرسول الله فقال : ذره حتى يكثر علينا من السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم: السلام عليكم ورحمة الله ، ثم رجع فأتبعه سعد ، فقال يارسول الله : انى كنت أسمع تسليمك وأرد عليه ردا خفيا ، لتكثر علينا من السلام . فانصرف معه النبى ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزغفران ، فاشتمل بها ، ثم رفع يديه ، وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد . فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا ، فقال سعد . ياقيس اصحب رسول الله ، فصحبته ، فقال : اركب معى ، فأبيت ، فقال : اما أن تركب ، واما أن تنصرف ، فانصرفت .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة ، تمر فى غير حفل ، و لاظهور ، يذهب اليه ماشيا ، ويعود على حمار ، يريد أن يردف

عليه رفيته تلك السجية الطاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعا ، وطاعته قربة ، فان يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء ، واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال فى تاريخ الدعوة الاسلامية .

ولم تكن دعوته قيسا الى الركوب معه على الحمار أمرا غريبا ، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ، ويعاقب (١) مع رفاقه . قال ابن عباس : ان النبى لما قدم مكة استقبله أغيلمة بنى عبد المطلب ، فحمل واحدا بين يديه ، وآخر خلفه . وقال معاذ : كنت ردف رسول الله على حمار يقال له عفير . وجاء اليه رجل ، وهو يمشى ، فقال : اركب وتأخر على حماره ، فقال محمد : أنت أحق بصدر دابتك منى ، الا أن تجعله لى ، فقال الرجل : فانى جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف فى السير ، فيزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعو لهم . ولم يكن أبغض اليه صلى الله عليه وسلم من الكبر والخيلاء ، فقد قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب الجمال : الكبر بطر الحق ، وغمص الناس » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية (أى كبرها) انما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب » .

هذا الحديث ينم بمعناه وعبارته على مقدار غضب محمد اذا ذكر الكبر والمتكبرون ، ولو كان للناس أن يفخروا بآبائهم لما كان فى جزيرة العرب أحق بالفخر من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، ولكن محمدا لا يرى فى المجتمع الذى أقامه الا هيئة تتساوى فيها الحرف ، والمراتب ، والأعمال والأحساب ، والأنساب ، ولا تفاضل عنده الا بالعمل الصالح يرفع صاحبه .

---

(١) المعاقبة أن يركب واحد مرة ، ويركب الثانى أخرى .

كان مرة فى سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما ، فقسموا العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب ، فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه . ولما وقف عليه اعرابى يرتجف خشية زجره وذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (١) . وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له ، فقال : لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، وكان يرى كذلك فى تقبيل اليد تشبها بالأعاجم ، وينهى عنه .

وكان محمد يكره الاطراء والألقاب : انطلق اليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده ، قالوا : أنت سيدنا ، فقال السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان . ويقول أبو بكر رضى الله عنه . أثنى رجل على رجل عند النبى ، فقال : ويلك ! قطعت عنق صاحبك ، أى أهلكته بالاطراء والمدح والتعظيم ، فانه يعجب بذلك فيهلك ، كأنه قطع عنقه . ويقول أبو هريرة أمرنا الرسول أن نحثو فى آفواه المداحين التراب .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يكره كذلك الخيلاء والتفاصح والتأثير فى الناس بالقول المزخرف ، ويقول : ان من أحبكم الى ، وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، وان أبغضكم الى ، وأبعدكم منى يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا يارسول الله . وما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون . والثرثارون هم الذين يكثرون الكلام تكلفا ، والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحا وتعاظما . وكان يكره الخطيب يسلب بفصاحته ألباب الناس ، ويملك حواسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : من تعلم صرف الكلام ليستبى به قلوب الرجال ، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا . وكان يقول : هلك المتنطعون ويكررها . بغضا منه فى التعمق والتفاصح ، كان كل ذلك نفورا بطبعه الميسر المتواضع عن التظاهر والرياء والتكلف .

---

(١) القديد : لحم مملوح مجفف فى الشمس .

كان فى تياسره جم التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله الى محدثه صغيرا أو كبيرا ويكون آخر من يسحب يده اذا صافح ، واذا تصدق وضع الصدقة بيده فى يد المسكين ، واذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان يذهب الى السوق ، ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء كان فى بناء مسجد المدينة ، أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه ، يلبس كعامة من حوله ، ويسكن وقد واتته الدولة والسلطان — فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ، ملبس بالطين ، ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر .

وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده ، ويخدم نفسه ، ويعقل بعيره ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس .

كان هذا التياسر والتواضع الصادق من نفسه الطاهرة ، والذى هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيبته ولا محبته ، وقد قيل فى وصفه : من رآه بداهة هابه ، ومن عاشره أحبه ، فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم ، وحب ووقار كامل ، ولم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيرا ما بين لأصحابه كيف يتصرفون فى حضرته ، وفى خطابه .

يقول السير وليم موير ، وهو من نقاد محمد الصرحاء ، فى وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع ، والشفقة ، والصبر ، والايثار ، والجود ، صفات ملازمة لشخصه ، وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ، ولا هدية مهما

صغرت ، وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لايختصه باقباله وان كان حقيرا .

وكان اذا لقى من يفرح بنجاح أصابه ، أمسك يده ، وشاركه سروره ، وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف ، حسن المؤاساة ، وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهناءتهم » .

ولسنا فى تاريخ محمد بحاجة الى أحد ، فان مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله ، وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها ، وانما سقنا عبارة السير موير هنا لشعورنا أنها صادرة عن اعجاب صادق ، ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حيا فى قلوبنا ، كما كان حيا بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التى طبعها على الوجوه بعمله وقوله ، لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها طلاء ، ولا يحجبها رياء ، ولا ترى الا على حالة واحدة فى الليل والنهار ، وفى السر والعلانية ، وفى الشدة والرخاء ، وفى الضعف والقوة ، فى السوق وهو فى شبابه ، وفى الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك . وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لاتبديل ولا تغيير فيها ، هى النفس التى اتصلت بالسماء ، وعاشت على الأرض ، دانية الى الناس ، محببة اليهم ، ففى كل أطوار حياته كان بطل الأبطال ، صلى الله عليه وسلم ، المثل الذى نحن اليوم أحوج ما نكون اليه ، ذلك المثل الذى قام عليه النظام الاجتماعى الاسلامى ، والذى جعل الناس سواء ، فى نطاق الأخوة الاسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه ، أو حسب أو نسب ، وانما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، وللناس من آدم ، وآدم من تراب .

تعبده ونسكه

نسكه وتعبده صلى الله عليه وسلم ، صفة بارزة فى طبعه الكريم ، فقد كان يجد فى العبادة قرة عينه ، وطمأنينة نفسه . ولو أنه كان من النساك الذين انقطعوا للرهبانية ، أو المتصوفة الذين انصرفوا عن الدنيا ، لما كان فى نسكه وتعبده بدعا ، وانما الذى يلفت نظر الباحث فى حياة بطل الأبطال ، هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذى يبلغ أرقى مراتب التعبد ، وبين القيام على أمور الدنيا التى كان يعيش فيها بكده ، ويعول كثيرا من الأهل والفقراء ، ويناضل أمة بأكملها ، ويسوس دولة فتية فى وجه العالم ، يوفد الى الملوك ويدعوهم ، ويستقبل الوفود ويكرمهم ، ويبعث السرايا ويقودها ، ويجادل من حوله من أهل الأديان وأهل السلطان ، ويهيىء للنصر ، ويحتاط للهزيمة ، ويبعث العمال ، ويجبى الأموال ويقسمها بنفسه ، ويقول : ان لم أعدل فمن يعدل ؟ ويشرع للناس دين الله فيفصل المجمل من الوحى ، ويوضح الغامض ، ويرسم السنن ، فيخرج من الأصل فروعه ، ويرد مالم يطلعه الله عليه الى ما أطلعه الله عليه . وهو فى كل ذلك يؤدى العمل اليومى الذى ينوء به أبطال هذه الدنيا وبين هذه الهموم والمشاغل يتجلى محمد الناسك العابد بالليل والنهار أعظم انقطاعا الى الله ممن انقطعوا اليه فى رءوس الجبال .

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، مثلا قائما بنفسه فى تاريخ البشرية منقطع النظير . كان يقسم يومه جزءا للعبادة ، وجزءا للناس وجزءا لأهله ، فاذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذى هو لأهله ، واحتفظ بما هو لله ، وقد واظب على ذلك مواظبة عجيبة تستحق مزيد الاعجاب من أنصاره وخصومه على السواء .

فقد كان مثلا من الجد الكامل ، والتوجه الخالص ، اذا انصرف للعبادة انصرف بجملته ، واذا قام بعمل آخر لم يفتر عنه حتى يتمه ، وقد أجمع مؤرخوه من أهل الملل المختلفة على أنه كان يعطى العمل الذى يشغله كل حسه وكل قلبه ، وكان ذلك يتجلى فى علاقته بالناس ، فما حدثه أحد الا التفت اليه بوجهه وجسمه ، وأصغى اليه تمام الاصغاء ، ولم يقطع الحديث حتى يكون المتكلم هو الذى يقطعه .

ذلك الجد الذى يلازم النفوس المؤمنة ، هو سر النجاح فى كل الأعمال ، سواء أكانت للدين أم للدنيا ، وفيه كان بطل الأبطال صورة صادقة منيرة لأصحابه وتلاميذه ، بل ذلك المثل من الجد فى كل شىء هو الذى أنجب ممن صحبه أكبر رجال الدولة ، وسواس الأمم ، فجعل من رعاة الابل والغنم ومن صغار الزراع والتجار خلفاء كسرى وقيصر ، يعلمونهما ما فاتهما من العدل والاحسان .

كان محمد بفطرته يحب النسك والعبادة ، ويجد فيها قرة عينه ، فكان قبل الرسالة ينقطع شهرا فى غار حراء خارج مكة للتعبد .

ألف النسك والعبادة والخلوة طفلا وهكذا النجباء
واذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

وقد اختلف الأصوليون والفقهاء فى صورة العبادة وطريقتها ، وعلى أية شريعة كان يتعبد ، وهذا الخلاف نفسه يلقى الشك فى تلك الأقوال والفروض ، والثابت تاريخيا هو أن عبادته كانت فكرا فى خالق الكون ، يدور حول الوجود والمشرف عليه ، فلم يعلم عنه أنه كان يرعى سنن العبادات فى الشرائع التى سبقته ، فقد رفض الأديان كلها قبل أن يهتدى الى الحق فى أمر الخالق ، حتى فى بعض مالزمه من عبادة العرب كالحج ، فانه لم يلتزم مذهب الحمس ، الذى هو مذهب عشيرته ، بل وقف وأفاض من عرفة كما يقف ويفيض الناس ، وحرم على نفسه كثيرا مما أحلت قريش فى جاهليتها ، فتبع ما يقره العقل الراجح ، واستمر طالبا الهداية ، باحثا عن

الحق ، ناسكا فى الوصول اليه ، عبادته التفكر والتأمل ، حتى أتاه اليقين . « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » ، ويقول القرآن ممتنا عليه : « ووجدك ضالا فهدى » . فلما جاءه الهدى أخذ يصلى ، فيخرج الى شعاب مكة ، ومعه على وهو صبى ، فيصليان مستخفيين ، حتى اذا أمسيا رجعا .

حلت الهداية قلب محمد ، فتعلق بالله ، وفنيت نفسه فى حبه ، وانا لنستطيع أن نقول : انه صار معه فى حركته ، وسكونه ، ويقظته ، ونومه ، وبلغ به الفناء فى الذات العلية أن صار يقف بين يدى خالقه حتى تتورم قدماه : يقول المغيرة بن شعبة : ان النبى كان يقوم ليصلى حتى تتورم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبدا شكورا ! ويقول ابن مسعود ، صليت مع النبى ليلة ، فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء ، قيل : ما هممت؟ قال : هممت أن أقعد وأذر النبى . ويروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن النبى قال له : أحب الصلاة الى الله صلاة داود ، وأحب الصيام الى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوما ، ويفطر وما .

كان قيام الليل ، والتهجد فيه من عادته طول حياته ، صلى الله عليه وسلم ، وكان له فيه نجوى ودعاء ، ما أدله على ضراعته وفنائه فى حب الخالق وخشيته ! كان يقول : اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفرلى ماقدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وهاكم القرآن يخاطبه فى شأن التهجد : « يأيها المزمل قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو

زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . انا سنلقى عليك قولا ثقيلا . ان ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا » ، فكان يفعل ما أمر به ، وفى ذلك يقول ابن رواحة من شعراء الصحابة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... اذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

حلت الهداية قلب محمد ، فعلق بالله فى كل شىء ، فهو ذاكره ، واثق به ، مراقب له ، مطيع ، خائف ، محب ، خاشع آناء الليل وأطراف النهار ، فاذا جاءه أمر يحبه قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، واذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال ، وان قصد فعل شىء قال : اللهم خر لى واختر لى ، وان أراد سفرا قال : اللهم بك أصول ، وبك أجول ، وان أراد نوما قال : اللهم باسمك وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه ، وان استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا واليه النشور ، وان لبس ثوبا جديدا قال : الحمد لله الذى رزقنى ما أتجمل به فى حياتى ، وان أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا ، وجعلنا مسلمين ، وان شرب قال : الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا واذا انقلب من الليل فى فراشه قال : لااله الا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، واذا هب من نومه فى الليل قال : رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم .

تعلق قلب محمد بالله فهو معه فى كل عمل وحين ، وشغف بالعبادة والنسك ، فهو يقوم الليل ، ويصرف فيها جزءا من النهار ، ويجد فى الصلاة لذته وقرة عينه ، وينهى أصحابه أن يقلدوه فيما لاطاقة لهم به . تقول عائشة كان رسول الله يدع العمل وهو يحب أن يعمل به ، خشية أن يعمل الناس به ، فيفرض عليهم . ويروى أنس أن النبى واصل : أى صام مواصلا الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، يومين أو ثلاثة ، وكان ذلك فى آخر رمضان ،

فواصل ناس معه ، فبلغه ذلك ، فقال : لو مد لنا الشهر لواصلنا وصالا يدع له المتعمقون « أى المبالغون » تعمقهم . انى لست مثلكم ، انى أظل يطعمنى ربى ويسقينى ، « أى يعيننى ويقوينى » ، وتقول عائشة : صلى رسول الله فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس كثير ، ثم صلى من القـابلة ، فكثروا ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة ، فلم يخـرج اليهم ، فلما أصبح قال : قد رأيت صنيعكم ، فلم يمنعنى من الخروج اليكم الا أنى خشيت أن تفرض عليكم ، ويقول أنس : كان رسول الله يقوم فى رمضان ، فجئت فقمت الى جنبه ، فجاء رجل آخر ، فقام أيضا ، حتى كنا رهطا ، فلما أحس أنا خلفه ، جعل يتجوز فى صلاته « أى يسرع » ، ثم دخل رحله فصلى صلاة لا يصليها عندنا، فقلت له حين أصبحت : أفطنت لنا الليلة قال : نعم ، ذلك الذى حملنى على ما صنعت .

لاشك أن نفس محمد المتصلة بالله ، تستطيع مالا يستطيع الناس ، فهو يود أن ينفرد بما فوق الطاقة ، فاذا نشط أصحابه لمتابعتــه ، خشى عليهم التعمق والغلو ، وهو الناسك الذى بلغ فى تعبــده مقاما لايدانى ، وهو الرسول الذى جاء بالحنفية الميسرة ، تلامس حقائق الحياة ، فخليق به أن يغضب اذ يرى الناس يهمون بترك الدنيـا والانقطاع للعبادة ، والله تعالى يقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك » .

رأى أحد أصحابه فى سفر مغارة بجانبها ماء وخضرة ، فمالت نفسه للعزلة بهما والتعبد ، فغضب ، وذكر له أنه ما جاء باليهودية ، ولا النصرانية ، وانما جاءهم بدين ابراهيم ميسرا سهلا . وأراد بعض الصحابة ، ميلا بفطرته، أو تأثرا بالرهبانية ، أن ينقطع للعبادة ، فغضب غضبا شديدا ومنعه ، وأراد آخر أن يمتنع عن أكل اللحم تنشطا وتعبدا ، فرده . ويقول أنس : كنا مع النبى فى سفر ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فنزل منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، ومنا من يتقى الشمس بيده ، فسقط الصوام ، وقام

المفطرون ، فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب ، فقال صلى الله عليه وسلم : ذهب المفطرون اليوم بالأجر .

وقد نفذت أوامره بالاعتدال والقصد فى كل شيء الى قلوب أصحابه ، وأدركوا مقصد أستاذهم الأعظم ، فأخذ بها بعضهم بعضا ، حتى ان سلمان الفارسى دخل بيت أبى الدرداء ، وكانا ممن آخى بينهم النبى فى المدينة ، فوجد امرأته متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاما ، فقال : كل ، فانى صائم . قال : ماأنا بآكل حتى تأكل ، فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، قال : نم ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال سلمان : ان لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى فذكر ذلك له ، فقال النبى : صدق سلمان .

وعن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى ، يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فقال أحدهم : أما أنا فانى أصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله اليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

ذلك هو التوسط الذى أراده محمد ، وكان فيه أعجب رجال التاريخ ، فهو برغم خشيته أن يميل الناس عن القصد ، وأن يفرطوا ويكلفوا أنفسهم مالا يطيقون ، كان المثل الأعلى فى التعبد والنسك ، كما كان فى الرجولة ، وتصريف شئون الدنيا ، والقيام عليها .

والآن أعود الى نوع من تعبده ، ما أحلاه لفظا ! وأسماه معنى ! ذلك هو الدعاء ، والدعاء كما قال صلى الله عليه وسلم ، هو العبادة : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

انظروا الى هذا الدعاء ، وما فيه من الضراعة والتسليم الكامل : « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين اللهم اهدنى لأحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها الا أنت ، وقنى سيىء الأعمال . وسيىء الأخلاق لايقى سيئها الا أنت ، اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربى ، خشع سمعى وبصرى ولحمى ودمى وعظمى لله رب العالمين ، اللهم اغفر لى ما قدمت ، وما أخرت وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت .

ذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم وصل فى نسكه وعبادته الى أرقى مراتب الاخلاص لله ، والتفانى فى طاعته وحبه ، والمثول الدائم فى حضرته ، ووصل فى شئون الدنيا الى اقامة دولة من أنقاض الهمجية ، والى ابراء المجتمع من علل الاضطراب والفساد ، ففى شخصه التقت أغراض الحياة جميعا على أكمل وجوهها .

تلك الناحية من صفات بطل الأبطال يحنى لها الناس جميعا رءوسهم ، واذا رفع اليها أبطال العالم أبصارهم غضوا الطرف أمام الاعجاز المحمدى ، فما كان رجل ممن ملأ السمع والبصر من رجال التاريخ ليقوى على حمل هذا العبء الروحانى ، من العبادة فى الليل والنهار ، وتلقى أعمال الدنيا فى كل يوم على أنشط ما يكون ، وأصلح ما يكون لخدمة نفسه وقومه ، وكفاح أعدائه ، واقامة الدولة الخالدة ، التى تركها بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم فى نشأتها وصولتها .

عفوه و صفحه

عفوه وصفحه صلى الله عليه وسلم عمن أسرفوا فى ايذائه ، هو الخلق الكريم الذى أدبه به القرآن ، قال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وبين الوحى معناه بقوله : « أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » فالعفو عند المقـدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس ، يتجلى فيها سمو المقصد ، وبعد الغاية ، والترفع عن الشهوات، وتبدو البطولة فى أروع صورها ... ولن تجد فى تاريخ الأبطال ، بل تاريخ البشر كلهم مثل محمد ظافرا ، ناجحا ، مؤيدا ، يعطى من حرمه ، ويعفى عمن ظلمه .

كانت مكة والطائف مركزى العداوة الشديدة ، تتنافسان فى الوفاء للات والعزى ، فلم يكن شرا على محمـد من قـريش ، ولا أرغب فى الشرك من ثقيف ، وبرز فى القريتين رجال مثل أبى جهل بن هشام ، وعكرمة ابنه ، وأمية ابن خلف ، وصفوان ابنه ، والعاص بن وائل السهمى ، والوليد بن المغيرة ، وأبى سفيان بن حرب ، وبنى عمرو بن عمير الثلاثة ، وأبى مسعود الثقفى ، ومالك بن عـوف ، وأضرابهم ، ممن اتخـذوا ايذاءه صـلى الله عليه وسلم والسخرية به وقتاله وهجوه متعة بها يتلذذون ، ومفخرة بها يفاخرون .

وينقسم ذلك الأذى والاضطهاد فى رأيى الى أربعة أطوار ، ويبتدىء الطور الأول بايذائه ، والتصغير من شأنه ، وقت أن كان مثل أبى لهب يقول له ، وهو ينذر الناس فوق الصفا : تبا لك ! ألهذا دعوتنا ؟ والطور الثانى يبتدىء بصحيفة المقاطعة ، وهى ميثاق علق بالكعبة ، وتعاهد فيه المشركون على مقاطعة بنى هاشم ، لحمايتهم ابنهم محمدا صلى الله عليه وسلم فكاد

يهلك ذلك البيت جوعا ، وهو مقطوع فى شعب بنى هاشم . كان هذا الطور شديدا ، فان الميثاق المقدس حرم على الناس أن يتزاوجوا مع آل محمد ، أو يبيعوهم ، أو يشتروا منهم ، أو تكون لهم بهم صلة ما . ويبتدىء الطور الثالث بوفاة أبى طالب عمه وحاميه ، وخديجة زوجه ومؤاسيته ، حين نثر التراب على رأسه ، وضاقت عليه الدنيا ، ولولا الايمان والنبوة الصادقة لانتهى به الأمر الى الانتحار ، أو أن يهيم على وجهه فى الأرض .

فى ذلك الطور خرج الى الطائف وحده يلتمس حماية ثقيف ، والامتناع بهم من قومه ، فردوه أشنع رد ، وسخر به زعماؤها الثلاثة من بنى عمرو بن عمير ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : والله لا أكلمك أبدا .. لئن كنت رسولا كما تقول لأنت أخطر من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلمك ، فسألهم محمد أن يكتموا عليه ، وقال لهم اذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عنى ، وكان يخشى سوء المنقلب الى مكة ، والشماتة والغلو فى ايذائه ، فأبوا حتى هذه عليه ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ، ويصيحون به ، حتى أخرجوه من البلد ، وتتبعه الصبية والسوقة يصيحون مسيرة ثلاثة أميال ، يعبثون به ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه ، وكلما جلس أقاموه ، وأجبروه على المشى ، فلجأ الى حائط (١) لعتبة بن ربيعة ، فلما اطمأن قال : « اللهم اليك أشكوا ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » . فلما رجع الى مكة لم يستطع أن يدخلها الا فى حماية مطعم بن عدى ، ثم اختتمت مكة هذا الطور من أطوار الايذاء بالعزم على قتله ، وتفريق دمه بين القبائل ، حتى يعجز عن

(١) الحائط : البستان .

طلبه بنو عبد مناف . فهاجر الى المدينة ، وابتدأ بذلك الطور الرابع . وحديث هجرته اليها ، وما لقى فى طريقه مشهور .

انظروا بعد ذلك الى معاملته لأهل مكة والطائف ، ورؤساء الفتنة ، وزعماء الشر ، الذين أسرفوا فى ايذائه واضطهاده ، لتتجلى لكم نفسه الكريمة فى مرآة عفوه وصفحه الجميل . انظروا اليه فاتحا فى جيش لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة ، وتطؤها خيله ، ويمر الى حنين والطائف ، فيقع بين يديه ستة آلاف من أسرى هوازن وثقيف ، ويفر من بقى من السادة المتكبرين ، ومالك بن عوف ، وياليل بن عمرو بن عمير . انظروا اليه والبلاد فى رحمته يشملها عفوه ، والسادة والزعماء الذين عتوا فى الأرض يجزون بالبر والاحسان ، وأبطال العالم لاتعرف لأمثالهم غير قطع الرءوس .

هذا محمد فى ذروة المروءة لايدانى ، وقبل أن يصل الجيش الفاتح الى مكة خرج أبو سفيان فى ثلاثة نفر مستطلعا ، فعلم أن لاطاقة له ولقومه بلقاء محمد ، فأردفه العباس على بغلة النبى التى كان يركبها ، ودخل به المعسكر ليلا ، يطلب الأمان له ولمكة ، فكان كلما من بنار من نار المسلمين قالوا : هذا عم النبى على بغلته ، حتى مر بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ فلما رآى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .. ثم سارع الى رسول الله يقول : دعنى أضرب عنقه ، فقد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، ولكن رسول الله أمر أن يبيت أبو سفيان فى رحل العباس . فلما أصبح جىء به . فأسلم وعفا عنه ، فقال العباس : يارسول الله ، ان أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا ، فقال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وعاد أبو سفيان الى مكة مسرعا ، والجيش يزحف اليها ، وهو يقول : والله ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ! فلما جاء قومه صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ فقامت هند بنت عتبة زوجه التى لاكت كبد

حمزة يوم أحد ، فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوه قبح من طليعة قوم ! فقال أبو سفيان : ويلكم لاتغرنكم هذه عن أنفسكم ، فانه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، من دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

أى مثل فى العفو الكريم أعظم من هذا ؟ أبو سفيان الذى فعل الأفاعيل والذى أدمى كبد الرسول فى أحد ، والذى زلزل بحصاره المسلمين فى الخندق ، أبو سفيان العاق من ولد عبد مناف ، الذى ناصر مخزوما وسهما على محمد وبنى هاشم ، يعفو عنه محمد ، ثم يعطيه مع العفو ما يفخر به ! وقد كانت هبة الحياة كل الرجاء ، فاذا الحياة والجاه بعض عطايا محمد للمقهورين من أعدائه .

دخل رسول الله مكة ، ولكن عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، ومن جمعوا من الناس أبوا الا قتالا ، فهزموا وفروا ، ثم استأمنوا فأمنوا ، بل عفى عنهم ، بل أعطوا من غنائم هوازن ، تأليفا لقلوبهم !

وانظروا الى مثل لن تجدوا له شبيها فى تاريخ البشرية ، هذا صفوان بن أمية العدو ابن العدو يفر الى جدة ، ليبحر الى اليمن ، فيأتى عمير بن وهب لرسول الله ، فيقول : يانبى الله ، ان صفوان ابن أمية سيد قومه ، قد خرج هاربا منك ، ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، قال : هو آمن . قال : يارسول الله ، فأعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه الرسول عمامته التى دخل بها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ، فداك أبى وأمى ! الله الله فى نفسك أن تهلكها ! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به ، قال : انى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان : ان هذا يزعم أنك قد أمنتنى؟ قال : صدق . قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

هذا العدو ابن العدو صفوان بن أمية لا يلقى من بر رسول الله أن يعفو عنه فحسب ، بل يبعث عمامته التى فتح بها مكة تطمينا للهائم على

وجهه الى البحر ، ثم اذا ما طلب منه أن يتركه ليختار الاسـلام أو الشرك شهرين ، قال : بل أربعة ، كى لا يقهره ولا يذله ، فهل فى تاريخ البشر مثال من العفو عنـد المقدرة أبر وأكرم من هـذا الذى فعله بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم !

وهذا رجل آخر جاءه قبيل الفتح ، وكان عاقا مسرفا فى هجوه وايذائه للرسول ، هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وطلب الاذن عليه ، فقال : لا حاجة لى به وقد هتك عرضى ! وكان مع أبى سفيان بنى له ، فقال : والله ليأذنن لى ، أو لآخذن بيد بنى هذا لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا . فلما بلغ رسول الله رق له ، فدخل عليه وعفا عنه ، فقال :

لعمـرك انى يوم أحمـل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحـيران أظلم ليـله فهذا أوانى حين أهدى واهتدى

وفى مكة وهو طائف بالبيت أراد فضالة بن عمير أن يقتله ، فلما دنا منه قال : أفضالة ؟ قال : نعم ، فضالة يارسـول الله . قال : ماكنت تحـدث به نفسك ؟ قال : لاشىء ، كنت أذكر الله عز وجل ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفر الله ! ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صـدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب الى منه .

ثم هاكم مثلا من عفوه عن رجل أبكاه ، وقهر المسلمين ، وحزنهم ، وهو عبد حبشى يقال له : وحشى ، ذلك هو قاتل حمزة . يقول وحشى : خرجت حتى ملت الى رسول الله بعد فتح مكة والطائف ، فلم يرعه الا بى قائما على رأسه أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآنى قال : أوحشى ؟! قلت : نعم يارسول الله ! قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته ، فلما فرغت من حـديثى قال : ويحك غيب عنى وجهك ، فلا أرينك ، قال : فكنت أتنكب رسول الله حيث كان ، لئلا يرانى ، حتى قبضه الله .

ذلكم هو ضبط النفس والعفو فى أحسن صـورة . رجل لا يستطيع رسول الله أن ينظر الى وجهه ، وهو قاتل عمه ، وهو عبـد لا أصل له ولا عشيرة ، يعفو عنه ، وأحب شيء الى المسلمين أن يروا دمه كما رأوا أحشاء حمزة الذى طعنه بحربته .

ولما اطمأن الناس بعد الفتح قام رسـول الله على باب الـكعبة ، فقال : « لا اله الا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعـارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم قال : يامعشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ...

ثم جلس رسول الله ، فقام اليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية (وكانت الحجابة فى غير بنى هاشم) ، فقال رسول الله : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

وهاهى ذى ثقيف كلها بين يديه ووفدها فى المدينة ، وقد أكلتها العرب ، وهانت على الناس ، فماذا فعل بها ، وفى وفدها رجل مثل ياليل بن عمرو بن عمير الذى طرده من الطائف ؟ أما مالك بن عوف فذلك من سبق اليه عفوه ، فرد اليه ماله وأولاده ، ووهب له مائة ناقة ، وأما هؤلاء فقـد رجعوا الى أهليهم بعفو شامل وأمان كامل ، ولولا ضيق المقام لسمعتم قصة هوازن ، وكيف رد الرسول سبيها ، واشتراه دينا عليه لأصحابه ، ليعطيه أعداءه الذين كادوا يقضون على الاسلام يوم حنين ، ولسمعتم من هذه الأمثلة آيات فى كل قبيلة وكل بلد ، مما تنقضى الأيام ويبقى فيها رسول الله المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة للناس جميعا .

رحمته وبره

جانب عظيم من جوانب شخصية محمد صلى الله عليه وسلم هو جانب رحمته وبره ، الذى لايدانيه فيه أحد ، وهو صورة لنفسه الكريمة ، فى أيام فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، فقد كان البر امامه ، والرحمة محيطة به ، وهو الذى يقول : « ان البر يهدى الى الجنة . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، لايرحم الله من لايرحم الناس ، الراحمون يرحمهم الرحمن ، لاتنزع الرحمة الا من شقى » ، وقد وصفه القرآن بهذه الصفة قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

كانت رحمته تسع الناس جميعا ، وكان بره يصل الى المؤمنين والمشركين ، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس الى قلبه الكبير ، وعطفه الشامل ، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حيا وميتا . روت عائشة أنه كان يقول : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » فقالت عائشة : لم يارسول الله ؟ قال : انهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا . ياعائشة لاتردى المسكين ولو بشق تمرة . ياعائشة ، أحبى المساكين وقربيهم يقربك الله يوم القيامة » .

كانت حياته موصولة بالفقراء ، وكان كل ما فى بيته ويده لهم ، وبلغ من عطفه عليهم أن مر رجل عليه ، فقال لرجل عنده : ما رأيك فى هذا ؟ فقال رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى ان خطب أن ينكح وان شفع أن يشفع . فسكت النبى . ثم مر آخر ، فقال النبى : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من

فقراء المسلمين ، هذا والله حرى ان خطب ألا ينكح ، وان شفع ألا يشفع ، وان قال ألا يسمع لقوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هـذا خير من ملء الأرض مثل هذا .

لقد عمل محمد بما آتاه الله ، وما أودع فطرته من الرحمة ، على رفع شأن الفقير واكرامه ، والأخذ بيد الضعيف ، وأرسل بره فى هذه الطبقة ، حتى قلب نظام المجتمع الذى ظهر فيه فى سنين قليلة ، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد ، كما كان يقول صلى الله عليه وسلم : « ابغونى ضعفاءكم ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفاءكم » وكان يسره أن يجتمعوا اليه . وقد آثر بالحديث مرة واحدة بعض الأغنياء الأقوياء من قومه ، فنزل القرآن بمعاتبته ، فقال : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى » .. الخ ،وطالما سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين ، وذهابه بهم الى الحرم ، فقالت أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ ، ولكنه كان بالمساكين رءوفا رحيما . يقول عبد اللهبن عمرو بن العاص : دخل النبى المسجد ، فجلس الى الفقراء ، وبشرهم بالجنة ، وبدا على وجوههم البشر ، فحزنت لأننى لم أكن منهم . ورأى سـعد بن أبى وقاص يتعالى على المساكين ، فذكر له أن ما ينال من الخير والنصر ، انما هو أثر هؤلاء الفقراء ، وأنه مدين للمساكين ، وقد تحقق ذلك واضحا جليا حينما قاد سـعد هؤلاء الفقراء المستضعفين الى القادسية ، فهزم رستم ، ووطىء دولة الأكاسرة ، التى كان العرب بعض رعاياها .

كانت رحمته وبره بالمساكين تمتد الى ما بعد الموت . جاء فى صحيح البخارى « أن النبى ذكر ذات يوم رجلا أسود ، فقال ما فعل ذلك الانسان ؟ قالوا : مات يارسول الله ، قال : أفلا آذنتمونى ؟ فقالوا : انه كان كذا وكذا قصته ، فحقروا من شأنه ، قال : فدلونى على قبره ، فأتى قبره ، فصلىعليه» .

وكان صلى الله عليه وسلم يجاهد لتحرير العبيد ، ولرفع قيمتهم ، فلم يدخر مالا . ولا سلطانا ولا دعوة فى سبيلهم ، وكانت نفسه تفيض بالرحمة

عليهم والبر بهم ، وأظهر مثل ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة ، الذى خير بين سيده محمد ووالده ، فاختار محمدا فى الوقت الذى كان لا حول له ولا قوة ، بل كان موضع أذى قريش وسخريتها ، وهو الذى جعل معتوقه زيدا هذا ، القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار حين وجههم لغزو الروم ، فاستشهد فى وقعة مؤتة ، ولما استأنف النبى غزو الروم بعد الفتح أمر شابا ابن رقيق ، هو أسامة بن زيد هذا وهو حدث فى العشرين ، ومشى أكابر الصحابة وأشراف قريش والنبى فى موكبه .

أرأيتم اذن كيف رفع برحمته وبره شأن الأرقاء المستعبدين ؟ وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة سيىء الملكة ، ويقول : حسن الملكة يمن وسوء الملكة شؤم » .

وكان بارا بالخدم والعمال ، روى أبو هريرة أن النبى قال : « اذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فان لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين » ! وقال معاوية بن سويد : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ليس لنا خادم الا واحدة ، فلطمها أحدنا ، فبلغ ذلك رسول الله فقال : أعتقوها ، فقيل : ليس لهم خادم غيرها . قال : فليستخدموها ، فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها . وعن أبى مسعود قال : ضربت غلاما لى بالسوط ، فسمعت صوتا من خلفى ، فاذا برسول الله يقول : اعلم ياأبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . وبلغ من رحمة محمد أنه كان لايطيق أحدا يقول : عبدى أو أمتى ، فأمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك ، وأن يقولوا : فتاى وفتاتى ، وقد كان لهذه التربية أحسن الأثر فى تحرير الأرقاء ، ونشر المساواة ، وتغليب روح الأخوة على ما كان من العصبية ، والغرور ، والتفاخر .

يقول المعرور بن سويد : رأيت أبا ذر وعليه حله ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله يقول : هم اخوانكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم

عليه . وقال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، وكان صلى الله عليه وسلم يخالط المساكين والخدم والعبيد ويحادثهم ويجيب دعوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويمشى فى جنائزهم ، ويصلى عليهم ، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيبا فى بيت المال لتحرير الأرقاء ، وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العبد بعد تحريره شيئا يعينه على الكسب .

لم يكن رسول الله ليقصر رحمته وبره ، الذى هو صورة صادقة لنفسه الكريمة ، على الناطقين من بنى الانسان ، فان هذه الرحمة ملكت مشاعره ، وحفزته لكفاح موفق فى سبيل الرفق بالحيوان ، فكم كان للعرب من عادات مرذولة أنكرها وأزالها . كانوا يقتطعون من حيواناتهم ، وهى حية فيشوون ويطعمون ، فحرم ذلك ، ولا يزال الى اليوم بعض الطوائف فى الصحراء الكبرى برغم اسلامهم يعملون شيئا من هذا ، فهم اذا خرجوا للغزو ، وبعدت عليهم الشقة ، فصدوا البعير ، فأخذوا من دمه ، وطبخوه وأكلوه ، أو شقوا عن سنامه فاقتطعوا من الدهن ، ثم خاطوا السنام ، وأكلوا الدهن . وكان وشم الحيوان ، ولا يزال ضرورة لاثبات الملكية فى البادية ، فنهى عن ذلك الأذى ، وخففه باختيار أقل الأثر فى أقل الأعضاء احساسا . وكان للعرب يتخذون من دوابهم أهدافا للرماية ، فنهى عن ذلك ، وعن أن يقطعوا ذيول الخيل . ومر مرة بناقة مربوطة جائعة ، فحل وثاقها وأطلقها . وأوصى الناس أن يخشوا الله فى البهائم ، ومن الأمثلة التى ضربها صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا ، فنزل فيها ، فشرب ثم خرج واذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له ، فغفر له » فقالوا : يارسول الله ، وان لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر . وقال أيضا : دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض .

تلك الأمثال يضربها محمـــد لقوم ماكانوا يظنون فى الرفق بالحيوان أجرا ، وقد كان لها أكبر الأثر من الرحمة والرفق فى نفوس المسلمين ، ومن تأدب بأدبهم فى الشرق والغرب ، وكان من عادات الجاهلية أن يتخذوا ظهور دوابهم منابر ، فنهى عن ذلك ، وقال : انما سخرها الله لكم لتبلغكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، وجعل لــكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجاتكم .

وهذه رحمتـــه يفيض بها قلبه الــكبير على عصــفور صــغير : قال عبد الرحمن بن عبد الله ، كنا مع رسول الله فى سفر ، فرأينا حمرة ، (طائر فى شكل العصفور) معها فرخان لها ، فأخــذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش (أى ترفرف) ، فلما جاء الرسول قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها . وقال صلى الله عليه وسلم فى قسوة عائشة على بعير ركبته : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » .

هذه الرحمة بالانسان والحيوان كانت تظهر أنسا وبشرا فى وجهه اذا رأى الطفل ، أو لقى الصبى ، فقد كان يأخذ أطفال أصحابه بين ذراعيه ، ويطرب لذلك ، وكان اذا مر بالصبية يقرئهم السلام . وحدث جابر بن سمرة : أن النبى رأى صبية يتسابقون ، فجرى معهم ، وكان يلقى الصبى فى الطريق فيركبه ناقته ليسره ، وكان أبر والد بولده ، يقول أنس : انه لا يعلم رجلا أبر بأهله وولده من محمد . وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله يأخذنى فيقعدنى على فخذه ، ويقعد الحسن على فخــذه الأخرى ، ثم يضمهما ، ثم يقول : اللهم ارحمهما فانى أرحمهما . وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسول الله وهو يقبل أولاده وأولاد أصــحابه ، فقال الأقرع بن حابس مرة وقد رآه يقبل الحسين : ان لى عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم قط ، واعترض آخرون بمثل هذا المعنى على الشفقة غير المــألوفة ، وكان محمد ينكر عليهم أن يكونوا غلاظ الأكباد قساة القلوب . قالت عائشة : جاء أعرابى الى النبى ، فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم : فقال النبى : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وهذه الرحمة فى نفس محمد كما كانت تبدو بشرا وأنسا ، كانت تفيض دمعا وأسى ، وكان جفاة القوم يستعظمون هذه عليه ، فكان يبين لهم أنها رحمة ، وأن لا عيب فيها .

مات لاحدى بناته ولد ، فلما رفع اليه وكانت نفسه تتقعقع كأنها شن ، (أى قربة جف جلدها) فاضت عيناه ، فقال سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء وجاءت نوبة سعد نفسه ، فاشتكى ، وذهب النبى يعوده ، فلما دخل عليه ، فوجده فى غاشية بين أهله . قال : قد قضى ؟ قالوا : لا يارسول الله ، فبكى النبى ، وقال : ألا تسمعون ان الله لايعذب بدمع العين ، ولا حزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ، وأشار الى لسانه .

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين ، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والمخالفين من أهل الملل الأخرى . رفع اليه بعد احدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم : ما يحزنك يارسول الله وهم صبية للمشركين ؟ فغضب النبى ، وقال ما معناه : ان هؤلاء خير منكم ، انهم على الفطرة ، فاياكم وقتل الأولاد ، اياكم وقتل الأولاد . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : مرت بنا جنازة ، فقام لها النبى وقمنا ، فقلنا : يارسول الله ، انها جنازة يهودى ، فقال: أو ليست نفسا ؟! اذا رأيتم الجنازة فقوموا . ولما مات النجاشى نعاه لأصحابه ، ثم تقدم ، فصف الناس خلفه وصلى عليه .

تلك هى الرحمة التى لاتعرف التخصيص بالدين أو الوطن ، ولافرق عندها بين الرفق بالانسان والحيوان .

وسئل مرة أن يلعن أعداءه ، فقال : ما جئت لعانا ، بل رحمة . ولما مات عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان زعيم المنافقين فى المدينة ، وهو الذى رجع بمن تبعه من الطريق يوم أحد ، فخذل النبى فى أحرج أوقاته ، وله مواقف مشهورة كان فيها شرا على الرسول والمسلمين . لما مات طلب ابنه

من النبى قميصه ليكفنه فيه ، تطهيرا له ، فأعطاه قميصه كفنا لزعيم المنافقين .
أرأيت أبر وأكرم من هذا الصنيع ؟ ثم مشى النبى الى قبره ، فوقف يريد الصلاة عليه ، فوثب اليه عمر بن الخطاب ، وقال يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا كذا وكذا ؟! يعد عليه قوله ، فتبسم الرسول ، وقال : عنى يا عمر .. قال عمر : فلما أكثرت عليه قال : انى خيرت فاخترت ، لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، وانصرف .

وذلك اشارة الى قوله تعالى فى المنافقين : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، ففى الخيـار بين أن يستغفر ، وألا يستغفر ، نزعت به طبيعته الرحيمة الى الاستغفار لأعدائه بل قال لعمر : لو علمت أنى لو زدت فى الاستغفـار على السبعين غفر لهم ، لفعلت أكثر من سبعين مرة .

تلك هى الرحمة التى وسعت أعداءه وأصدقاءه والناس جميعا .

وسمع مرة أعرابيا يصلى خلفه ، يقول : اللهم ارحمنى ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا ، فلما سلم قال : لقد ضيقت واسعا .

فمن هذا وغيره مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة ،يتضح أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن نتاجا للبيئة التى عاش فيها ، وانمـا كان الرحمة الشاملة فى وسط الجفوة والعصبية والأثرة ، تلك الرحمة التى لاحد لها هى التى جعلته يدعو لأعدائه ، وقـد سئل الدعاء عليهم فى أحـد وهو جريح ، وعمه حمزة ممثل به ، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد . وهى التى جعلته يدعو لثقيف يوم الطائف وقد امتنعت عليه . وتلك الرحمة هى التى جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة ، وطريق الشام ، وقد سألوه صلة الرحمة ، وشكوا جوع أهليهم ، وهم الذين أخرجوه من داره وحصروه فى المدينة .

فرحمته وبره صلى الله عليه وسلم وسعتا العدو والصديق ، والقوى والضعيف ، والحر والعبد ، والحيوان ، وفاض بها قلبه الكبير ، فكانت فى فمه بشرا ، وفى عينه دمعا ، وفى يده جودا .

تلك الرحمة التى وسعت الجميع هى أبرز صفات محمد . وهى التى يتسابق الأبطال اليها ، فيردون عن هــذا المدى ، ويبقى رســول الله المثل الكامل ، والقدوة العظمى . وحقا كان كما قال عن نفســه « انما أنا رحمة مهداة » وكما قال القرآن الكريم له : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

فصاحته و بلاغته

لم يكن بطل الأبطال وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الا بشرا يوحى اليه ، وما أوتى عن طريق الوحى قد فصلت آياته فى الكتاب ، وفيما عدا ذلك من الأقوال والأعمال ، فانما هى ثمرة عقل راجح ، ولسان فصيح فى ذات فذة ، وله فى غير الوحى من القول والعمل ما يكفيه ليبقى أبد الدهر امام البلاغة والفصاحة ، وسيد الرجال ، بل الرجل الفذ فى تاريخ البشرية ، الذى اجتمعت له أمور ثلاثة :

الأول : تكوين أمة من قبائل وشعوب متنافرة ، كأنما خلقت لتتباعد وتتطاحن .

والثانى : تأسيس دولة بقيت قرونا مصدر السلطان فى وسط الدنيا ، ولا يزال أثرها أكثر من ألف سنة يهيىء الملك لآل هاشم أينما ظهروا فى المشرق والمغرب .

والثالث : اقامة دين يدين به مئات الملايين ، ويخلص له العرب والعجم ، والأبيض والأسود والأصفر .

وتلك الأمور الثلاثة التى اجتمعت له والتى تكفى كل واحدة منها لتخليد الذكر ، هى بعد الوحى كما قلت نتاج ذلك اللسان الفصيح ، والعقل المدبر .

وقد أجمع الناس على أن محمدا الأمى قد أوتى من الأسلوب السهل المعجز ما لم يؤت معلم ولا متعلم ، ممن دانت لهم العربية ، وملكوا زمامها ،

فله جوامع الكلم ، وبدائع الحكم في لفظ ناصع . وقول جزل ، ومعان صحاح خالدة ، في عبارات مضيئة مشرقة ، لا تكلف فيها .

قال له أصحابه يوما : ما رأينا الذى هــو أفصح منك ! فقال : وما يمنعنى ، وانما أنزل القرآن بلسانى : لسان عربى مبين . وقد فسر صلى الله عليه وسلم فصاحته بنشأته فى بنى سعد ، ومولده فى قريش ، يريد أنه جمع قوة عارضة البادية وجزالتها ورونق الحاضرة وزخــرف صناعتها وروعتها . غير أن نشأته فى بنى سعد ، ونسبته فى قريش ، لا تفسر لنا ناحية أخرى ، وهى مقدرته على أن يخاطب كل قبيلة وشعب من الشعوب العربية بلهجته ، ويبدى فى هــذه اللهجات جميعا من مطرب القول وجامعــه ما يسبى قلب سامعه ، سواء أكان السامع من قحطان أم عدنان ، من أقصى جنوب الجزيرة أم شمالها ، من حجازها أم تهامتها أم نجدها ، فانه مقر لمحمــد بالامامة فى البلاغة والفصاحة ، فى أى لهجة جرى عليها الحديث .

كان كلامه بينا لافضول فيه ولا تقصير ، يحفظه من جلس اليه . تقول عائشة : ماكان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه . وروى عنها أيضا : أنه كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه .

ولقد كان بطل الأبطال ، علم البيان فى قومه الذين اشتهروا بالفصاحة ، والذين كانوا يقيمون للأدب أســواقا ، ويكتبون بالذهب ، ويعلقون على الكعبة ما يستحسنون من القول ، وكان أبو بكر رضى الله عنه نسابة مشهورا فى قريش فى الجاهلية والاسلام وكان فى حيرة من فصاحة محمد وبلاغته ، قال له يوما : لقد طفت فى العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى . وذلك هو التفســير الصحيح ، لأن محمدا فطر على صــفاء الحس ، ونفاذ البصــيرة ، وصحة الحكم ، واستقامة الطبع ، مما هو جلى فى قوله وعمله .

ويقول الجاحظ ، ومكانته فى الأدب ما تعلمون ، يصف كلام الرسول : « ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ،

وهو مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة الســامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولابارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ثم لم يسمع النــاس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعــدل وزنا .. من كلامه صــلى الله عليه وسلم .

وانى محاول الآن أن أسوق لكم نبذا من قــوله فى مواضع شتى ، ومعان متفرقة ، فيها ترون الفصاحة والبلاغة المحمــدية حية منيرة ، لم تبل القرون جدتها ، ولم تذهب شيئا من طلاوتها . انظروا الى هذه الكلمات : قال رسول الله : أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعــلانية ، وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا . ونظرى عبرة .

وقد وجدوا مكتوبا على قائم سيفه صلى الله عليه وســلم : أعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن الى من أســاء اليك ، وقل الحق ولو على نفسك .

ويقول ابن عباس : كنت رديف رسول الله فقال : ياغلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، فان العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك . جفت الأقلام ، وطويت الصحف ! فان استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، فافعل ، فان لم تستطع فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ، ولن يغلب عسر يسرين .

وعن أبى ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله : خصلتان من كانتا فيه كتبه الله تعالى شاكرا صابرا ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شـــاكرا ولا صابرا : من نظر فى دينه الى من هو فوقه ، فاقتدى به ، ونظر فى دنياه الى من هو دونه ، فحمد الله على ما فضله به عليه » .

وعن حذيفة قال رسول الله : « لا يكن أحدكم امعـــة (وهو الذى لا يثبت مع أحد ولا على رأى لضعفه) يقول : أنا مع الناس ، ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وان أساءوا أن تجنبوا اساءتهم » .

وعن معاوية أمير المؤمنين أنه كتب الى عائشة : أن اكتبى الى كتابا توصيننى فيه ولا تكثرى ، فكتبت : سلام عليك ، أما بعـــد ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مئونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى الى الناس ، والسلام عليك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « شر ما فى الرجل ، شح هالع ، وجبن خالع ، اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »، وقال : « ان الله كره لكم ثلاثا ، قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال »، وقال : « لا تظهر الشـــماتة بأخيك ، فيعـــافيه الله ويبتليك » ، وقال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذى يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « يوشك ان طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذناب البقر ، يغدون فى غضب الله ، ويروحون فى سخط الله » .

وقال : « صنفان من أهل النار ولم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رءوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ، ولا يرحن ريحهـــا » . وقال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ثم انظروا الى هذه الكلمات الموجزة ، وتدبروا ما فيها من حكم بالغة : لاخير فى صحبة من لايرى لك ماترى له . رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم . الناس بزمانهم أشبه . العدة عطية . العاقل ألوف مألوف . لا تزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما . اتقوا المهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه .

كان صلى الله عليه وسلم خطيبا لايبارى ، يقصد الى الحقيقة ، فيضعها بين سمع الناس وبصرهم ، لا يحاول أن يستبى القلوب بزخرف القول ، يكره التفاصح والتنطع ، بين العبارة ، واضح المعنى ، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير . وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل المعجز .

يقول الخدرى صلى بنا النبى يوما صلاة العصر ، ثم قام خطيبا ، فلم يدع شيئا يكون الى قيام الساعة الا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال : ان الدنيا خضرة حلوة ، وان الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق اذا علمه ، ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة امام عاق . ألا وان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض .

ثم انظروا الى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع ، فى صفحة موجزة ، يلقيها على مائة ألف ، فى موقف عرفة ، فى حجة الوداع ، ففيها ألغى مآثر الجاهلية ، وقرر مبادىء المساواة ، وحرم الثأر ، وقضى بذلك على أقدم عرف للعرب ، وأمس شىء بقلوبهم ، وقضى كذلك على الربا ، ورفع درجة المرأة ، وحرم الفتن والنهب والغزو ، وكان مفخرة وعزة ، وذكر الأشهر الحرم ، فسوى بين أوقات السنة فيما هو حلال أو حرام ، وقد كان الروم يستغلون تحريم العرب للقتال فى شهور معينة ، فيعتدون على حدودهم ،

ونصح الناس فى أمور شتى وحذرهم ما يحقرون من أعمالهم ، ويستهينون به من الآثام .

قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس : ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . أى شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأى بلد هذا ؟ أليس البلدة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأى يوم هذا ؟ قال : أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى ، قال : فاندماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألا هل بلغت ؟. ألا هل بلغت ؟. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا موضوع (أى مهدر) ، ولكن لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لاربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب (عم النبى) موضوع كله ، وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (أى ابن عم النبى) . أما بعد أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيها سوى ذلك ، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : « انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله».

أما بعد : أيها الناس : فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا غيركم تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن ، فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وأن تضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

أيها الناس : استوصوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عوان (١) لايملكن لأنفسهن شيئا ، فاعقلوا — أيها الناس — قولى ، فانى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا : كتاب الله ، وسنة رسوله .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟

فأجاب الناس من كل صوب ، نعم . فقال : اللهم اشهد ، ونزل عن ناقته .

هذه الخطبة جمعت أصولا قد تبدو الآن معترفا بها ، مجمعا عليها ، ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربى وقت القائها ، بل حالة المجتمع الانسانى ، يعرفون أنها كانت أساسا جديدا لأكبر انقلاب اجتماعى منذ ظهوره صلى الله عليه وسلم ، ويلحظون احاطتها على قصرها بالداء والدواء ، وان فيها أسس الحضارة التى جعلت من العرب الضلال أمة تسوس المشرق والمغرب قرونا كثيرة .

وهاهى ذى الأيام تمر فتبلى كل جديد ، وفصاحة محمد وبلاغته لاتزال نضرة عذبة يبتهج بها المتطلع الى الأدب والعلم ، ويجد فيها الأديب ريا وشفاء .

(١) جمع عانية ، أى أسيرات ، شبههن بالأسيرات لضعفهن .

حسن سياسته وحكمته في تصريف الأمور

صفة عظمى من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى مثل لرجال الدولة والسياسة والقادة فى جميع ميادين الاصلاح . لعلهم كذلك واجدون فيها ما يمكنهم من النجاح ، فان محمدا بما أوتى من الأخلاق ، وما وهب له من حسن السياسة ، وتصريف الأمور ، ووضعها فى نصابها ، قد أوتى النجاح الذى لم يؤته أحد قبله ولا بعده .

هذه الناحية من حياته يبـدو فيها محمـد مثلا عاليا لرجل الدولة ، وسترون بها ميزة على من سبقه من الأنبياء والرسل والأبطال ، ولقد كانت أكثر وضوحا فى المدينة حيث استلزمت الأحوال أن يكون نبى الأمة وزعيمها وقائدها ، وحيث أخذ التشريع الاسلامى يتناول الحياة السياسية والاجتماعية بتوسع وتفصيل أكثر مما كان فى مـكة ، حين كانت الدعوة لا تزال فى بدايتها ، متجهة بكل قوتها الى تعريف الناس بالله ، وانذارهم حسابه وعقابه ، ذلك الفرق بين مظهرى الدعوة فى بيئتين مختلفتين ، جعل بعض كتاب الملل الأخرى يحاولون أن يصوروا محمدا فى شخصيتين : مكى ومدنى يقولون هذا نبى ، وهذا رجل دولة وصاحب سلطان .

لو أن الذين يظنون هذا الظن كانوا بعيدى النظر لرأوا محمدا الواعظ فى مكة ، هو محمدا الناسك فى المدينـة ، الذى تتورم قدماه من كثرة الوقوف بين يدى الله ، والذى يموت وهو رأس الدولة ، ودرعه مرهونة عند يهودى .

بل لرأوا محمدا الذى يشيعه العبيد والصبية والسـوقة من الطائف بالسخرية والحجارة ويقيمونه اذا جلس من الاعياء فيدعو الله لهم بالهداية

هو محمدا الذى يناول مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة يوم الفتح ويقول : اليوم يوم بر ووفاء .

لو أن هؤلاء الذين جعلوه نبيا فى مكة ، ورجل دولة فى المدينة لاحظوا كيف وضعت نواة الدولة فى أيام المحنة بمكة ، لما حسبوها من غرس يثرب ، بل علموا أنها نتيجة محتومة للصراع العنيف ، الذى دام ثلاث عشرة سنة ، وتتاجا للدعوة من وقت أن قال الله عز وجل : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

وما قامت الدولة فى يثرب الا على أيدى تلاميذ النبى فى مكة ، ممن هاجروا فى سبيل الله الى الحبشة أولا وثانيا ، ومن هاجروا الى يثرب بعد ذلك ، وعلى سواعد الأنصار من أصحاب البيعة الأولى والثانية عند العقبة فى مكة .

أولئك هم نواة الأمة النموذجية التى غرسها الرسول فى المدينة ، وشاد عليها الدولة المحمدية ، ثم ظهرت (الامبراطورية) الاسلامية على صورتها فيما بعد .

كان محمد فى مكة والمدينة من ساعة أن استيقظ على صوت الرفيق الأعلى فى حراء ، الى أن استجابت روحـه لذلك الرفيق فى بيت عائشة ، واضح الهدف ، متعدد الوسيلة ، راجح العقل ، حسن السياسة .

قبل فى مكة أن ينتفع بعرفها ، فعاش فى جوار عبد المطلب وهو مشرك ، وطلب فى عودته من الطائف جوار المطعم بن عدى فدخل مكة فى حمايته وهو مشرك ، ولذلك قبل الاستفادة من نظم أهل الأوثان ، ليقهر الأوثان فى مكة ، وقبل فى المدينة أن ينظم أهلها ويعاهـدهم ، ويستعين بهم ويقـودهم الى النصر ، ليحمى نفسه وصحبه ، ويقضى على الأوثان .

موهبة واحدة ، ووسيلة واحدة ، لغاية واحـدة ، فى أحوال شتى ، أخطأ هؤلاء الكتاب تصويرها .

وان كان يبدو فى المدينة كثير التشريع والتنظيم والتصريف لشئون الحياة ، فليس ذلك برهانا على تغيره ، بل على تفوقه وأنه فياض الموارد ، خصب العقل .

فذات الرسول التى وقفت فى وجه المشركين ثلاثة عشر عاما بمكة لا تعجز ، ولا تهن ، ولا تيأس ، هى ذاته التى فاضت فى المدينة على شئون الدنيا ، فدلت على مافيها من الحيوية والقوى التى جعلتها أهلا للتغلب على كل معضلة فى وقتها ومناسباتها .

تلك القوى والصفات التى لم تجتمع لأحد قبله ولا بعده ، جعلته من أية ناحية نظرت اليه مثلا كاملا ، وأسوة حسنة ، بل من مجموع هذه القوى والصفات يبرز للناس رسول الله سواء أكان فى أيام الدعوة المجردة عن السلطة ، أم فى أيام الدعوة المصحوبة بالرياسة الزمنية فى المدينة ، ذاتا موفقة ناجحة ، انصرفت الى الله بكليتها فجعلته أمامها ، ووضعت ماعداه وراءها ! هو فى كلتا القريتين الناسك العابد ، الباكى بين يدى خالقه ، وهو فيهما الزاهد ، يعرض عليه أصحابه أن يوطئوا له فراشا ، فيقول : مالى وللدنيا ! ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .. لم يغره السلطان بشىء من المظاهر ، ولا خرج به عن التواضع والتياسر .

فأى تنافر يجد النقاد فى حياة الرسول ، ليجعلوا من شخصه شخصين ، وهو يكافح فى مكة ولا سلطان له ، ويجاهد فى المدينة على رأس الدولة التى خلقها ؟ لقد كان همه فيهما جميعا الى اللحظة الأخيرة ، نشر دينه ، وغايته بسط سيادة الاسلام على الشرك .

وأى تناقض يجد نقاده بين حياته فى مكة ، وحياته فى المدينة ، وهو فى الأولى يتوسل بالصبر على الأذى والسخرية ويتقى بعرف الجاهلية الموت مع أنه لا يقر ذلك العرف ، ويسعى لهدمه ، ويرسل المؤمنين مهاجرين الى الحبشة ، ويجادل عن دينه ، ويدعو اليه ، ويخرج من كل كارثة برأى صائب ، ويعد لكل حالة تدبيرا محكما ، وفى الثانية يتخذ من نصرة أهلها تكأة ،

فيعاهد اليهود والمشركين ، ويتقى الموت بدرع الدولة التى نظمها ، وينجو من (الأحزاب) بحسن الرأى ، ويغلب المصائب بموفق التدبير ؟

ثلاث عشرة سنة قضاها فى فم الأسد ، دون أن يستطيع الأسد أن يطبق عليه أنيابه ، وعشر سنين فى المدينة يحاول فيها الأسد أن يمسك بالفريسة ، وفى هذه وتلك يبدى رسول الله من حسن الرأى ، وبارع السياسة والصبر ، وسعة الصدر والتدبير ما يوقع الأسد فى شبكة الفريسة ، فاذا ماانتهى الى النصر الحاسم المعجز ، وبهت الذين كفروا ، قالوا : لو انه لم يقم دولة ولم يقد جيشا ، لكان النبى الخالص من الشوائب ..!

لو أن الذين يأخذون على محمد أنه لم يقتصر على حياة الوعظ ، وظنوا أن الأكمل له أن يقف عند الجهر بالدعوة حتى يقتل ، فكروا فى مصير الدعوة نفسها ، لشاركونا فى الاعجاب به مرشدا وواعظا ، ومنظما وفاتحا .

فبين جفاة الأعراب فى بيئة الأوثان والعزة بالعصبية ، والتفاخر باباحة الدماء والأموال والأعراض ، لم يكن لدعوة محمد بعد قتله مصير الا الاندحار والسخرية به وبها ، وقد علمت ذلك قريش ، وأعدوا له عدته وهيئوا لبنى هاشم من بعده الموقف الذى ليس لهم فيه الا الدية صاغرين .

لو أن هؤلاء النقاد كانوا أكثر بصيرة بحياة العرب ، لأدركوا مع السهولة هذه الحال ، ولو سلك الرسول ذلك السبيل ، وبقى فى موقفه ساكنا الى آخر لحظة ، لما بقى من دينه الا بعض مواعظ تروى ضمن أساطير التاريخ ، أو لبقيت الدعوة على أحسن الفروض موكولة الى المصادفات كما بقى غيرها ، حتى يتاح لها رجل من الجبابرة ، أو من المصلحين ، يأخذها ويضع سيفه بجانبها ، حتى يظهرها على غيرها ، وهى صورة محرفة لما أراد الله وأراد محمد. ومع ذلك ماذا يريد الناقدون من رجل كامل العقل والرجولة أن يعمل ، وقد هم القوم بقتله ، ففر منهم ويهمون بتعقبه للقضاء عليه فى ملجئه ؟ وكل مابينه وبينهم من خلاف، قائم على نفس العقيدة التى ملكت قلب محمد ، والتى احتمل فى سبيلها صنوف الأذى والعذاب ، والتى هى عنده أساس الخلود ،

ووسيلة الحياة الأخرى ، أكان ينتظرهم فى المدينة حتى يأتوا اليها فيقتلوه ؟ لو كان مطلبه متعلقا بشىء فى النفس من متاع الدنيا ، لأمكن أن نلحظ على ما بيننا وبين أولئك الكتاب من خلاف وجهة نظرهم ، ولكن أمر محمد لم يكن شيئا من هذا فى قليل أو كثير .

لقد كان محمد أبعد الناس نظرا وأرجحهم عقلا ، فمنذ أن وصل الى المدينة أخذ فى اعداد العدة لحماية الدعوة من قوم لا يحترمون غير القوة ، ولم يفلح فيهم النصح ثلاثة عشر عاما .

نظر بثاقب فكره فى وسائل الدفاع عن النفس والصحب ، فأحسن ابتكارها وأحسن استعمالها وانتهى الى النصر الذى تقول فى صاحبه دائرة المعارف البريطانية : انه النجاح الذى لم ينل مثله مصلح دينى فى زمن من الأزمان !.

ذلك النجاح المقطوع النظير لم يبدل من حالة محمد فى نسكه وتعبده ، وزهده وتواضعه وتياسره ، وبره ورحمته ، ومظهره ومخبره ، ومطلبه وغايته ، بل بقى والدعوة غالبة فى المدينة كما كان والدعوة مغلوبة فى مكة .

فعظمته عندنا هى فى ملكه ، وفى نبوته ، وفى ملكه برهان آخر على نبوته ، فانه يقف وحده فى تاريخ الفاتحين ناسكا فقيرا زاهدا أوتى كل السلطان ، ثم يموت لا يوصى لأحد بعده ، ويحرم ذريته وأهله الأوفياء ، لا من الملك الذى شاده وحده ، بل مما يرث الناس عادة ، ويقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

يذكر فى صلاته ، وهو بكامل العافية شيئا من تبر فى بيته ، فيسرع فيها ، ويدخل البيت ، فيخرجه ويوزعه ، خاشيا أن يدركه الموت وله شىء من الدنيا .

ويدخل مكة فاتحا ، فيضع رأسه ويطأطئه على ناقته وهو يسير ، وأعداؤه على الهوان والعجز ، ويخشى أن تحدثه نفسه من العجب أو الغرور .

والحق الذى لامراء فيه أن محمدا فى حياته بالمدينة ، وبقيادته للأمة وتوليه الحكم ،أدى الرسالة التى اختصه الله بها أحسن أداء ، فأرانا بالفعل لا بالقول ماذا يجب أن يكون عليه الحاكم فى كل المناسبات والأحوال ، والناس محتاجون للحاكم وللدولة مادامت الحضارة بل مادامت الدنيا .

فلو أنه قضى ولم تبرز لنا هذه الناحية ، لما كان المثل الكامل الذى سعد الناس به ، ولو كانت المواعظ وحدها كفيلة بالاصلاح ، لوجد الناس فى الكتب ما يغنى عن المصلحين .

ولكن هى الأمثال تضرب ، والأقوال تطبق ، والعين ترى ، والأذن تسمع ، والحس يشارك الفكر .

هو ذلك كله الذى يطبع الناس بالمثل الصالح ، ويحرك البشر الى الجهود النبيلة المثمرة ، ومحمد لهذا كما يقول : (بوزورث اسميث) أكبر المصلحين على الاطلاق .

***

فى هذا الحديث رد موجز على بعض كتاب الملل الأخرى ، الذين أرادوا أن يصوروا محمدا فى شخصيتين : مكية ومدنية ، وبيان لخطأ هذا التصوير . والآن أنتقل الى قصدى من الحديث ، وهو بيان ناحية من نواحى الرسول فيها درس كامل ، وفيها ضياء يكشف لنا عن الأخلاق السامية ، التى كانت موضع الفصول السابقة ، بل فيها صور لا تقرب من وصف محمد للناس الا بمحاولة اخراجها .

جاء صلى الله عليه وسلم الى يثرب ورفيقه أبو بكر بعد سفرة شاقة ، وخوف زلزلت له نفس صاحبه ، جاءها لاجئا يطلب لنفسه وصحبه الأمن فى جوار أهلها ، فما استقرت به النوى حتى لحظ بثاقب بصره حاجتها الى السلام ، والى التنظيم الداخلى ، وحاجتها الى الأمن الخارجى .

جاء يثرب (التى سميت مدينة النبى فيما بعد) والأوس (١) والخزرج (٢) فيها قريبا عهد بوقعة بعاث (٣) ، والعداوة القديمة بينهما تثير الأحداث الجديدة ، واليهود يذكون نار الفتنة ، ويخشون سوء المنقلب اذا ما اتحدت الأوس والخزرج .

جاء الى المدينة وأصحابه الذين هاجروا اليها ليس لهم فيها حول ولاقوة الا حصول اللاجىء المستظل بجوار قوم لا يحبون أهله وعشيرته ، فاستقبل من المسلمين بحماسة عظيمة ، ومن اليهود والمشركين ببشر لا بأس به . هؤلاء يأملون أن يصلح الله به ذات بينهم ، وأولئك يطمعون فى استخدام العربى الخارج على الأوثان ، المتودد لأهل الكتاب ، للاعتزاز على العرب من ناحية ، ومقاومة النصرانية فى الشمال من ناحية أخرى . فكان مركزه لذلك على جانب عظيم من الدقة ، عرضة لانتكاس اليهود والمشركين ، كما هو عرضة لبغى مكة ، وشرها المستطير .

فلننظر كيف تناول الموقف بحكمته ؟ وبرهن على أنه أهل لكل جليل من الأمر ، ليس بما اختصه الله به من الوحى فقط ، بل بما أوتيه رجلا فى ذروة الانسانية ، من حسن التدبير وكمال العقل .

شرع فى الحال فى بناء المسجد ، وما هذا المسجد ؟ فيه كانت الآساس التى وضعها لصلاح الدين والدنيا ، وأصبح معبدا و (برلمانا) ومقرا للسلطة التنفيذية ، ومركزا للقيادة العليا ، منه تصدر الدعوة الى الله ، والشرائع لخلقه، وجميع الخطط والتدابير الادارية والسياسية والعسكرية ، وفيه تستقبل الوفود ، ويلقن العلم .

كان المسجد على سذاجة بنائه وأثاثه ، وعلى قلة الأوضاع فيه ، يتناسب كل التناسب مع تياسر محمد وأصحابه وانصرافهم للجوهرى من الأمر ويذكر

(١، ٢) انصار النبى من أهل المدينة هم قبيلتا الأوس والخزرج . ابنا قيلة ، وهى امهما ، نسبا اليها وهما ابنا حارثة بن تعلبة من اليمن .

(٣) يوم بعاث بضم الباء : يوم معروف كان فيه حرب بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ، وبعاث اسم حصن للأوس .

الناس فى كل حين بهذه الحقيقة ، وهى أن الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التى تعنى بالروح والخلق ، لا بالافتنان فى الأوضاع ، والاسراف فى المظاهر .

ومن هذا المسجد الصغير نمت تدريجيا الادارة الاسلامية الى أن شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفى هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة ، وأحوال طارئة ، ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الادراك ، كانت بذورا لأوسع الادارات الامبراطورية وقواعد لأكبر اصلاح بشرى .

من هذه التدابير ظهرت يثرب وطنا لأهلها ، لا مسكنا لأقوام متنازعين فيها ، وطنا آمنا للمسلمين والمشركين واليهود ، وللنازحين اليها من أية قبيلة كانوا ، ولأى عنصر انتسبوا ، عربا أو عجما .

فظهر لأول مرة معنى الوطن ، تتساوى النـــاس فيه تحت نظام يعطى حقوقا ويلزم تـــكاليف ، من غير نظر الى الأحساب والأنســـاب والعصبيات والعقائد .

انظروا اليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد فى صحيفة بين أهل الأديان والأجناس ، تجعلهم جميعا وطنيين مكلفين بالدفاع عن الوطن أمام أى اعتداء عليه ، متكافلين فى الحرب والسلم ، لا ينصرون غيرهم ولا يمالئونه على أهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو أبنـــاءهم ، وتكفل حرية العقيدة لأهل الوطن ، وحرمة أموالهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدىء الصحيفة هكذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم تقرر أن من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متنـــاصر عليهم ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهـــود دينهم ،

وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم ، ثم تقرر لبقيــة اليهود المعــاهدين ما ليهود بنى عوف ، ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هــذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، الى أن تقول : وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وأن ما كان بين أهل هــذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فســاده ، فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انقادت الى النبى سلطة يثرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت العهود أن تنص على حكم فى حالة الخلاف ، ولم يكن الا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الأساسى لدولة الاسلام .

فقضى رسول الله على الفوضى ، والاباحة للقوة ، وجعل لأول مرة فى البلاد العربية حق الأمة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع اقامة الحدود الى الله . أى الى شريعته ، والى رسوله منفذ هــذه الشريعة ، وكانت الى ذلك الحين تتولاها القوة الغاشمة وحدها ، قوة العصــبية لا تفــرق بين المذنب والبرىء ، وبذلك غرس لاجىء الى يثرب بذرة الحضارة فى أشــد الأقوام نزوعا الى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الامبراطورية التى أزهرت قرونا طويلة ، ولا تزال فخر المشرق ، وحديث المغرب .

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم بما أوتى من العقل الراجح ، أن النظام الذى يريده ليثرب أولا ، وللعالم أخيرا لا تكفله صحف الدساتير وحدها فى قوم غلاظ ، سراع الى الفتنة ، شــديدى التمسك بالعصــبية ، بل لابد من القوة لحماية الدعوة ، وصون النظام الذى وضعت قواعده فى هذه الصحيفة ، وما تبعها من عهود صــارت فى مجموعها دستور الوطن الجديد ، هذه القوة لا تكون الا فى سواعد المؤمنين الذين هجروا وطنهم الى الحبشة والى يثرب ، فرارا من النظام العتيق ، وخروجا على دعوة الجاهلية والعصبية ، فهم حماة

عهد الحرية والنظام ، الذى جاء به محمــد صلى الله عليه وسلم ، من هؤلاء المهاجرين كان الفوج الأول من الجيش المحمدى ، ومن الأنصار كان الفوج الثانى ، فهم المتطوعــون الذين صادفت الدعــوة من نفوسهم موقع القبول والبشر ، فلم يكن هناك سند للحرية والنظام الجديد غير المهاجرين والأنصار من بطون قريش وقبائل أخرى بينها من المنافسة ما بينها . والأنصــار هم خصوم قريش ومنافسوها ، وقد كادت كذلك العداوة والبغضاء التى بين أهل المدينة تقضى على وجود الأوس فيها قبيل وصوله صلى الله عليه وسلم .

فتأليف هــذا الجيش من المهاجــرين والأنصــار ، ومزجه ، وتدريبه ، وتربيته حتى يكون وحدة متماسكة ، غايتها نصر الدعوة ، ووسيلتها الطاعة والنظام ، وعدتها الايمان ، هو العمل العظيم الذى برزت فيه صفة رسول الله العسكرية . ومن أبطال هذا النوع من الفاتحين السابقين واللاحقين فى المدينة، وبعد مضى ستة أشهر فقط من وصوله اليها ، أخذ يعد هذا الجيش ويهيئه ، حتى اصطدم به بعــد سنتين فى بدر مــع قوة تفوقه فى العــدة ، وفى شهرة صناديدها ، كما تزيد على ثلاثة أمثاله فى العدد ، فرأى الناس معجزة النظام والتدريب . ومنذ هزيمة بدر لم تقم للوثنية قائمة ، ولا وقف الجيش المحمدى حتى بلغ قلب فرنسا ، وقلب الهند .

رأى هذا الخليط من أتباعه فى يثرب عرضة لدعوة العصبية ، فدعاه الى التآخى وجعل للرجل من قريش أخا من الأوس ، وللآخر أخا من الخزرج ، وما زال يؤاخى بين هذا وذاك ، ويعقد بينهم أواصر أخوة فى الله ، حتى شمل القبائل والبطون ، ووصل بهذا التآخى فى العقيدة الى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها ، وجعل الميراث للأخ فى العقيدة ، دون الأبناء والآباء من غيرها .

هذه المؤاخاة التى تجدون حديثها فى كتب السير مطولا ، وفيها تفصيل الأسماء والأنساب ، هى أساس الأمة الاســلامية ، وأساس النصر فى كل مواقع الاسلام فيما بعد .

وقف أبو سفيان ينظر الى جيش محمـــد يوم الفتح ، فكلما مر فوج قال : من هؤلاء ؟ فيقال : سليم أو مزينة أو غيرها ، وهو لا يعبأ بهم ، حتى لاحت الكتيبة الخضراء من هؤلاء الاخوان ، فقال للعباس : ومن هؤلاء ؟ قال المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل ! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

هذه الأخوة فى الله التى قضت على عرف القبيلة ، وعصبية الجاهلية ، والتى تعهدها رســول الله بعنــايته ، أخرجت الأمة العــربية من الاختلال والتشتت الى حياة الوحــدة والنظام ، وهيأت (للامبراطورية) الاســلامية مكانتها التاريخية .

كان محمد صلى الله عليه وسلم رجل جد ، بصيرا بالعواقب ، شديد اليقظة ، دائم التفكير ، علم أنه لا يكفى لأمن يثرب أن يضع لهــا دستورا يكفل الحرية والتعــاون بين مسلميها ويهــودها ومشركيها . ولا يكفى أن يؤاخى بين أنصاره المؤمنين لكى يكفل النظام الداخلى فى المدينة ، ما دامت المدينة كلها كالجزيرة فى المحيط ، لاتصل الى ناحية من النواحى الا باذن المشركين وتسامحهم ، وهى فى هذا المحيط الذى تتولى زعامته الدينية قريش أضيع منها قبل هجــرته اليها ، اذا لم تعترف قريش والعــرب لها بالوجود وتوادعها . ولننظر كيف أخذ يعالج هذا الخطر ، ويجعل من المدينة الضائعة المحصورة قاعدة الجزيرة العربية ، ثم عاصمة الامبراطورية فى بضع سنين .

كان فى المدينة على مفترق طريقين : طريق يريده له بعض كتاب الملل الأخرى ، وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ، ويعجزون كل العجز اذا اعترضتهم عقبات الحياة ، وسخافات البشر ، وسنن الوجود ، وطريق آخر هو الذى سلكه لأن الله أرشده وأعده ليكون المثل الكامل فى القول والفعل . أما الأول فهو الطريق السلبى ، وأما الثانى فهو الطريق العامل ، ففى الأول كان عليه أن يكتفى بالاقامة فى المدينة كما كان فى مكة واعظا مرشــدا ، معولا على حماية من عاهدوه من أهل المدينة ، منتظرا ما تفعــل قريش ومن

حول يثرب من الأعراب فان أحسنوا وتركوه فى عزلته كان لهم الفضل ، وان جاءوا فقضوا عليه ، كان له أجر الشهادة ، ولهم فخر النصر .. وأما الطريق العامل ، فهو أن يدرك هذا الخطر ، ويعمل على منعه ، ويقوم على دعوته ، مناضـــلا مجادلا مجاهدا حتى يفوز بغايته ، ويضمن للذين آووا ونصروا والذين هاجروا معه ، السلامة والعزة .

لم يكن محمد من الوعاظ الذين يمرون على الحياة يلقون الى الدنيا كلمة الخير ، ثم لا ينظرون : أذهبت مع الريح أم بقيت ؟ فهو بمقتضى رسالته ومروءته ورجولته الكاملة شخص آخر ، هو الجد فى صورة رجل ،والايمان العامل الراسخ ينسف الباطل نسفا .

ماجاء المدينة ليبنى صومعة ، ويسأل المشركين واليهود حمايتها ، فلم يكن بمقتضى طبعه ومناسباته يستطيع أن يسلك الســـبيل السلبى الكلامى دون أن يصل به الى الاخفاق المحقق .

نصر بعض أهل المدينة محمدا ايمانا به ، ووافقهم المشركون طمعا فى الاعتزاز على مكة ، وتحويل تجارتها الى ســوق يثرب ، وكان فى المدينة اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأنه لايختص بالنبوة أحدا غيرهم ، ويطمعون فى أن يعتزوا بمحمد على العرب ويؤيدوا به دعوتهم .

وفى المــدينة المهاجــرون أصيبوا بحمى يثرب من أول حلولهم فيها ، وتشاءموا من عقم نسائهم ، حتى ان امرأة الزبير لما ولدت كان نفاسها عيدا ، وصحبهم الفقر بعد أن تركوا أموالهم فى مكة ، ذلك هو الأمر الذى لامخرج منه الا بالجد والعمل ، ورسول الله قد برهن فيه على فيض من العقل وحسن السياسة ، لم يؤت مثله مصلح ولا فاتح فى زمن من الأزمان .

* * *

فيما سبق وصف موجز لحالة المدينة ، وبيان باختصار لآمال اليهود ، وأطماع المشركين ، وحركة المسلمين ، وأنه لم يكن أمام الرسول مخرج الا

بالجد والعمل الحاسم . والآن ننظر فى حالة مكة والمشركين حول المدينة ، ليتبين فضل حسن السياسة والحزم فى التغلب على ما يشبه المستحيل .

يظن أن مكة قرية بائسة ، محرومة ، فى واد غير ذى زرع ، وقليل من يعلمون أنها فى وقت ظهور الدعوة الاسلامية كانت من أغنى القرى ، بل كانت سوقا من أربح أسواق التجارة فى العالم القديم ، وكانت قريش فيها من أعظم التجار همة ، وأخبرهم بحال من حولهم من الأمم . ولعل الموقع نفسه ، والحرمان الطبيعى ، هو الذى حفزهم ، وضاعف نشاطهم ، فساحوا فى الأرض ، وابتغوا فضل التجارة ، ألم نسمع بمغامرات فينيقية فى التاريخ القديم ، وبريطانيا فى التاريخ الحديث ؟ أليس سر نجاح هذه الأمم هو فى عجز أوطانهم عن تقديم حاجات الحياة ، مما دفعهم الى المغامرة وطلب الرزق فى أسواق العالم ، فصاروا أغنى أهل الأرض ، فى أفقر بقاع الأرض ؟ كذلك كانت مكة وقت ظهور الدعوة المحمدية : كان أهلها فى بسطة من الرزق ، ومتاع بكل مالذ وطاب من منتجات العالم القديم .

يقول البحاثه « اسبرنجر » ان صادرات مكة فى وقت الهجرة لم تكن تقل قيمتها عن خمسين ومائتى ألف دينار من الذهب ، والدينار خمسة عشر فرنكا ، أى نحو ثلثى الجنيه المصرى .

فاذا ذكرنا ارتفاع قيمة المعادن النفيسة فى ذلك الزمن ، وذكرنا أن « اسبرنجر » انما يقدر قيمة الصادرات وحدها ، أدركنا مقدار البضائع التى تتبادلها مكة ، وهى وسيط بين اليمن والحبشة ، والامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وكانت هذه التجارة الواسعة غير محصورة فى بيت أو فريق من الناس ، بل تجدون فى كتب السيرة أن أبا سفيان حين أحس الخطر على القافلة قبيل بدر ، استنهض مكة كلها فخرج اليه ألف من المقاتلة ، معها مائة من الخيل ، وسبعمائة من الابل ، ولما أصيبت قريش فى بدر تبرع أهل مكة بقافلة أبى سفيان كلها ليعدوا بها للانتقام من محمد وأصحابه وقد كانت أرباح مكة من هذه التجارة الواسعة تقدر بخمسين فى المائة من رأس

المال مما أتاح لها حياة من البذخ تلحظونه فى كرم أهلها وهم يضيفون حاج الجزيرة كله ، ويسرفون فى اللهو بالخمر والميسر والقيان والطرب .

أما حالة النبى وأصحابه بالمدينة فقد مر فى بعض الأحاديث ما يكشف عنها . فالمهاجرون وقد صودرت أموالهم ومساكنهم فى مكة ، جاءوا المدينة وليس لهم من الدنيا غير ايمانهم ، فهذا ابن عمير لا يجد مايتستر به ، وهذا على بن أبى طالب يطل من ثقب الباب على يهودى ليعمل فى بستانه ، كلما نزع دلوا نال تمرة حتى نال حفنة . وهذا رسول الله يخرج الى المسجد فيجد أبا بكر وعمر ، فيقـول : ما أخرجكما ؟ فيقـولان : الجوع ، فيقول : وما أخرجنى الا الجوع . فاذا ترك الرسول مكة تنعم بما هى فيه ، وتسمع بما هم فيه ، أيكون ذلك مؤيدا لانتشار الدعوة ، وخذلان الشرك ؟ كلا ، فان قريشا كانت تجعلهم مضرب الأمثال ، وموضع السخرية ، تمر على المدينة بمتاجرها وعزها ، تستهوى الضعيف ، وتفتن البائس ، ثم تبطش انتصارا لهبل ، وترضى بأذى المسلمين اللات والعزى .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أصدق لرسالته ، وأبر بأصحابه ، وأسمى همة ، وأعظم شجاعة من أن يستكين ، وأن يقيم على هذا الهوان ، فشرع فى الحال يتهيأ للعمل الحاسم ، يرد به قريشا الى رشدها ، باصابتها فى أعز شىء لديها ، وهو تجارتها ، ويرد الأعراب عن ذلك الحصار ، الذى يجعل من الشرك نطاقا حول المدينة ، ويؤمن المدينة نفسها من الفتن التى يثيرها اليهود بين أوسها وخزرجها ، وبين المشركين والمسلمين عامة .

تلك أغراض ثلاثة لابد لادراكها من القوة ، وخلق هذه القوة وتنظيمها ، والاستعانة بها على أسمى المقاصد ، هو عمل امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم على من سبقه من الرسل . وذلك الدور فى تكوين المدينة وتدريب المهاجرين والأنصار ، والخروج بهم على الناس جميعا ، هو من أدق ما امتحن به محمد مصلحا ، ورجل دولة ، وفيه تجلى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى مالا يضاهيه الا أخلاقه الفاضلة .

أثره فى التربية العسكرية

بعد وصوله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بستة أشهر فقط عقد أول راية فى الاسلام لعبد الله بن الحارث بن المطلب ، ثم أخذت سراياه وغزواته تتتابع ، وبالرغم من أن كل هذه السرايا قبل بدر لم تدرك غرضا من الأغراض الظاهرة من قريش ، فانها أدركت أغراضا سياسية وعسكرية كان لابد منها لتثبيت الحكم ، وظهور الدولة ، فقد أحيت آمال المهاجرين ، ورفعت حالتهم المعنوية ، ونشطت أبدانهم التى كانت دائما غرضا لحمى يثرب ، كما عودت المسلمين العمل المشترك فى قيادة موحدة ، ليس للأحساب والأنساب سلطان فيها ، ولا للقبيلة والعصبية علاقة بها ، بل ان هذه الحركات العسكرية المستمرة هى التدريب الدائم ليوم الفصل .

وقد علمت المدينة من هذه الحركات العسكرية أن محمدا جاد فى مقاومة القوة بالقوة ، وعلم الأعراب أن الرجل الذى يخرج بسراياه ليتعرض لقريش ، ليس بالذى يغمز جانبه ، أو يباح حماه ، ولو علموا فيه ضعفا لتطاولوا على المدينة ، وجعلوا من نهب حيوانها وقتل رعاته ، حديث فخرهم ، وأناشيد نسائهم .

وكذلك علمت قريش أن محمدا وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، صاروا فى المدينة أخطر على حياتها الاقتصادية ، وان ظنتهم أقل خطرا على حياتها الدينية ، وفهمت أنه الآن يصادرها فى أعز شىء لديها ، وهو التجارة ، كما صادرته فى أعز شىء لديه ، وهو العقيدة ، فان كانت تريد حرية التجارة فلا بد لها من الاعتراف بحرية

العقيدة ، وهو ماوصل اليه فى معاهدة الحديبية بعد تلك الحوادث الدموية فى بدر وأحد والأحزاب .

دامت هذه التدريبات العسكرية نحو سنتين ، فلما أحس النبى صلى الله عليه وسلم فى أصحابه القدرة على قبول معركة ترفع مقامهم فى نظر العرب كافة ، لم يتردد فى التقدم لها ، فنزل بدرا ، وانتظر فيها قريشا ، فجاءته فى العدد والعدة ، فى ألف مقاتل بأحسن أسلحة العصر ، ومائة فارس ، وسبعمائة بعير .

وكان هو فى قوة من أربعة عشر وثلثمائة راجل ، سلاحهم السيوف ، ومعهم ثلاثة أفراس ونحو سبعين بعيرا .

أراد أن يطمئن الى حسن استعداد أصحابه للقتال ، فسألهم الرأى ، فأما المهاجرون فتكلموا وأحسنوا ، حتى قال المقداد بن عمرو : امض يارسول الله ، فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى برك الغماد (١)لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فشكره رسول الله ، ثم قال : أشيروا على أيها الناس — يريد الأنصار — لأن بيعتهم له كانت على أن يمنعوه مادام فى ديارهم ، فكان يتخوف أنهم لايرون نصرته الا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم الى عدو خارج ديارهم . فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ... فسر عليه الصلاة والسلام بقول سعد ، وقال سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم !.

---

(١) موضع باليمن ، وهو بضم الغين وكسرها .

هذا هو روح الجيش قبيل بدر ، يعبر عنه رجل من المهاجرين ، وآخر من الأنصار ، نفوس صاغها الايمان ، وصقلتها الطاعة والتدريب والنظام ، وذلك هو عقل بطل الأبطال يتجلى فى المشورة والأدب والوفاء . أما المشورة ففى ترديده : أشيروا على أيها الناس ، وهو يعلم أنه لو خاض بهم البحر ، أو اجتاز القفر ، ماخالفوه ، وأما الأدب والوفاء فهو استئذانه الأنصار قبل أن يعرضهم لحرب لم يبايعوه على مثلها من قبل .

فلما خاض المعركة انتصرت القلة فى العدد والعدة ، على الكثرة ، والفريقان عرب وشجعان ، وانما رجح جيش محمد كل هذا الرجحان بأمرين ظاهرين : الأول النظام ، والثانى احتقار الموت . وشهد الناس فى بدر معجزة ذلك النظام حين أغارت خيل المشركين على الصفوف المرصوصة ، فلم تحركها من مكانها قدما واحدة ، وارتدت عنها حائرة ، اذ رأت مالم تسمع به من قبل ، ذلك أن للخيل اذا أقبلت فى زحفها مغيرة رهبة يعرفها من مارسوا الحروب ، وقلما تثبت لها الراجلة . شهد الناس فى بدر ثلاثمائة رجل رباهم محمد ونظمهم ، يستفتحون الجهاد فى سبيل الله على الأحمر والأسود والأبيض ، فتفتح لهم الأرض ، فعلم الناس منذ يوم بدر ما للنظام واحتقار الموت من قوة ، كما رأوا بعد فى الخندق كيف يمكن قوما أحبوا الحق أكثر مما يحبون الحياة أن يردوا الأحزاب عن مدينتهم ، وبان كذلك كيف يرجح النظام على العدد والعدة .

ففى وقعة الخندق أو الأحزاب ذر (١) قرن النفاق ، ونقض اليهود عهد رسول الله ، وجاء العدو المدينة من فوقها ، ومن أسفل منها ، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا ، ولكن التدريب المحمدى للكتائب المرصوصة ، وتلك القيادة الماهرة التى لا تحرج بشىء ، ولا تضيق ذرعا ، وذلك العقل الخصب ، قد أتم بالرأى والحيلة ما بدأته الشجاعة والصبر ، وانصرفت الأحزاب عن المدينة فى ظلام الليل ، يركب زعيمها ناقته فيسوقها ولما يفك عقالها ، فتقوم على ثلاث .

---

(١) طلع .

تلك القيادة المحمدية الماهرة ، هى التى أنقذت المدينة كذلك من قبل فى أحد ، فسارعت ، ولما يفق الجيش من صدمته ، الى الحركة والظهور للعدو بمظهر الطالب له ، المتقدم اليه ، ولولا هذه المسارعة التى لا تكون الا للنظام والطاعة ، لدهمت قريش المدينة ، وقضت على بقية جيش المسلمين فيها . تلك القيادة الماهرة لجند مدرب ، هى التى جعلت قريشا تتراجع ، والمهزومون بالأمس يتعقبون الذين انتصروا عليهم .

هذه بعض مثل نعرضها موجزة ، وتجدون تفصيلها فى كتب التاريخ ، ليتبين قدر محمد صلى الله عليه وسلم رجل دولة وقيادة ، وما أوتى من حسن السياسة ، وحسن القيادة ، ولتتجلى لطلاب الحق ذاته الجامعة .

ومن العجيب أن هذه التدريبات العسكرية ، والواقعات والحروب والمكايد والحيل والرأى والتدبير الذى أشرنا الى شىء منه سابقا قد أخرج الدولة المحمدية ، التى صارت أساس أعظم الامبراطوريات فى تاريخ البشر ، من غير أن تكون مقصودة لذاتها ! وانا لنكون مقصرين نحو الحق التاريخى ، ونحو ما نعتقده نتيجة للبحث ، اذا تركنا الناس يتوهمون أن الدولة كانت غرضا أصليا للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل الواقع أنها جاءت عرضا ، ووجدت كوسيلة صالحة للغرض الأول ، وهو القضاء على الشرك ، واحلال الايمان بالله وحده محل عبادة الأوثان ، فان مكة لما بالغت فى القسوة وأسرفت فى اضطهاد المسلمين ، نفدت كل مساعى الرسول السلمية فى أن يجد للعقيدة الاسلامية حياة حرة ، وللدعوة مجالا طليقا ، فلجأ الى دفع القوة بالقوة مطالبا بحرية الأديان كلها : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » .

كان كل هذا الصراع المسلح يرمى الى شىء أساسى واحد ، وهو تقرير حرية العقيدة فى أشد الأقوام همجية ، فظهرت صفات بطل الأبطال فى التنظيم

وبناء الدولة كما ظهرت من قبل خارقة فى الثبات على المبدأ ، والصبر على الأذى ، وبيان الحجة ، واستقامة الوسيلة ، ووضوح الغاية .

وسنتحدث فيما بعد عن الحـرية الدينية ، وكيف كانت هى الغرض الحقيقى لسياسة بطل الأبطال فى المدينة .

الناحية العسكرية في بدر

قد يكون من المفيد أن نخص معركة بدر ببعض ما تستحقه من افاضة الحديث لما لها من الأثر الحاسم فى تاريخ المسلمين العسكرى ، ولا أستطيع أن أصف المعركة فى بدر دون أن أشير الى الحالة العسكرية فى الجزيرة قبل بدر ، وما صارت اليه بعد بدر .

لقد كان العرب على علم تام بضروب القتال كما هى الحال فى العالم فى ذلك العصر ، فكانوا يعرفون فنونه وأدواته كما تعرفهــا الأمم المحيطة بهم ، وكانت قريش بين العرب ممتازة بالثروة والرحلة والاحاطة بما يحدث فى العالم أكثر من غيرها من القبائل العــربية ، كما كانت تتمتع بالســيادة الدينية فى الجزيرة ، وتتمتع بتجمع قواها فى مكة ، مما يمكنها دائما من سرعة الحشد والتعبئة . لكل ذلك آلت اليها القيادة العسكرية ، كما آلت اليها القيادة الدينية ، فكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم انتزاع هذه السيطرة من قريش ، لينتزعها من الجزيرة كلها . ولم يكن من الممكن بعد تجربة دامت ثلاث عشرة سنة يدعو فيها الى دينه بالوسائل السلمية ، دون أن يصل الى حرية العقيدة بسبب سطوة قريش ونفوذها فى العرب ، ألا ينازعها هــذه السيطرة . فغزوة بدر لم تكن أمرا عرضــيا ، ولا كان كل المقصود بهــا فى الواقع مجرد الاستيلاء على عير قريش ، بل كان المقصود كذلك ضرب قريش فى قوتها الحربية .

وقد أدرك الرسول أن أصحابه أصبحوا من النظام الذى بثه فيهم ، والروح المعنوى الذى سرى فى نفوسهم ، من اجتماع الــكلمة والفناء فى

سبيل الحق ، بحيث يستطيع أن يلقى بهم سادة الجزيرة العربية فى أول معركة منظمة . ولو لم يكن يعلم هذا ، وكان يخشى لقاء قريش مجتمعة ، لذهب الى طريق الشام يلقى عيرها ، ولكان ذلك أهون عليه ، لأنه يلقاها فى مكان أبعد عن مكة من المكان الذى لقيها فيه ، فهو اذن لم يقصد قافلة التجارة لذاتها ، ولكنه أحب أن يلقى معها جيش قريش .

تقدم الرسول الى بدر بكتيبة ليس لها من معدات الجيوش مالقريش ، فقد كانت الخيالة فيها لاتزيد على فارسين فى رواية ، وثلاثة فرسان فى رواية أخرى ، ولم تكن لها دروع ولا سلاح غير السيوف ، بل لم يكن لها مايكفى من الابل لحمل العتاد والرحال . هذا على حين كان لقريش العدد والعدة ، فكان عدد فرسانها مائة فارس ، وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من أصحاب الرسول ، وكان معها من الابل ما يكفى لأن يذبحوا لطعامهم عشرة كل يوم ، وكان كل ما يعرف من أنواع السلاح اذ ذاك متوافرا لها بسبب ثرائها ، واستعدادها الدائم للحرب وخصوصا هذه المعركة ، ولكن شيئا آخر عظيما كان متوافرا لأصحاب الرسول ، فاستعاضوا به عما كان ينقصهم من العدد والعدة ، أما هذا الشىء العظيم فهو أمور ثلاثة :

الأول : النظام ، فان التربية المحمدية سواء أكانت فى صورة العبادة ، أم تلقين عقيدة التوحيد ، أم ارجاع الأمر الى الله مع حسن العمل ، أم الايمان بالمساواة فى عمل الدنيا والآخرة ، أم ايثار الشهادة فى سبيل العقيدة على الحياة وما يتعلق بها من أحوال الأهل والعشيرة ، وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الرسول وأولى الأمر منهم — ان هذه التربية أحدثت فيهم قوة جديدة لم يكن العرب يعرفونها من قبل ، تلك هى قوة النظام التى رجحت بها كتيبة المؤمنين على جيش المشركين .

والثانى : القوة المعنوية التى ملأ بها الاسلام نفوسهم ، فانهم دون مشركى العرب كانوا يؤمنون بالبعث ، فهم لذلك لايرون فى الموت فناء

مطلقا ، بل يرون أن وراءه — مع ادراك فضل الشهادة — حياة أبقى وأسعد من هذه الحياة .

من أمثلة ذلك أن شابا فى السادسة عشرة من عمره كان فى كتيبة المؤمنين ، فلما سمع الرسول يحرض المؤمنين على القتال ويعدهم الجنة قال : اذن ليس بينى وبين الجنة الا هذه التمرات ؟ وهى تمرات كان يأكلها ، فقذفها ، وحمل بسيفه على المشركين ، فلم يزل يقاتل مستبسلا حتى لقى الموت الذى يريده .

والثالث : وحدة القيادة ، فقد كان المسلمون ممتازين بها ، يتفانون فى الاخلاص والطاعة لقائدهم ، وذلك من الأمور التى ضاعفت قواهم .

ولنذكر لذلك ما حدث فى أثناء المعركة ، اذا رأى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقوم الصف ، رجلا خارجا عن رفاقه فى الصف ، فوكزه ، فقال الرجل : أوجعتنى يارسول الله ، فأقدنى منك ، فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اقتص لنفسك ، فقبل الرجل بطن النبى ، فقال النبى : ولم اذن ؟ قال أردت أن يكون هذا آخر عهدى بالحياة .

تلك أهم الأسباب التى استعاض بها المؤمنون عما كان فى جيشهم من نقص العدة والعدد ، ولا تظنوا أن قريشا كانت خائرة فاقدة للنظام والقوة المعنوية ، فقد كان لديها أكمل نظام يعرفه العرب ، ولها من عزتها ، ومن حب المحافظة على سيطرتها العسكرية ، ومن الرغبة فى الانتقام لحادثة نخلة وقتل ابن الحضرمى ، ومن العزم على الاحتفاظ بحرية التجارة وسلامة الطرق الموصلة لهذه التجارة ، ما جعلها تقاتل مستبسلة ، حتى ان رجلا منها أقسم أن يرد حوضا وسط جيش محمد ، فلما قطعت رجله قبل أن يصل اليه دفع نفسه الى الحوض ، وهدم جزءا منه برجله الأخرى ، ولما جرح أبو جهل مر به رجل من المسلمين وهو فى حشرجة الموت ، فوضع قدمه على عنقه ، وقال : أرأيت كيف أخزاك الله ؟ قال وبم أخزانى ؟ أعار أن أقتل ؟

من هذا تدركون عظم مهمة الجيش الاسلامى فى سبيل انتزاع السيطرة العسكرية التى كانت لقريش .

أما كيف وقعت المعركة نفسها ، فقد تقدم الجيش الاسلامى من الشمال الى الجنوب ، فلما وصل الى ساحة بدر كانت ميمنته سلسلة من التلال المرتفعة ، وكذلك على ميسرته سلسلة أخرى أقل ارتفاعا .

وتقدم جيش المشركين ، وكان أمامه كثبان من الرمل تقع غرب وادى بدر ، وعلى ميسرته أرض صخرية قليلة الارتفاع .

فى السهل الذى بين هذه الجبال وهذه الكثبان وقع أول تصادم بين القوتين ، وكانت الليلة التى سبقت المعركة شاتية ، فهطل مطر غزير فى ناحية قريش ، وكان أقل غزارة فى ناحية المسلمين ، جعل مهمة قريش فى التقدم الى ساحة بدر أشق من مهمة المسلمين ، ولما تقدموا فى الصباح استقبلت المشركين الشمس من المشرق ، وهم متجهون اليها ، فكانت من العوامل الطبيعية المؤذية لهم .

نشبت المعركة كما تنشب المعارك فى ذلك العصر ، بفرسان يتقدمون الصفوف ويتصارعون ، فتقدم ثلاثة من بنى هاشم ، ولقيهم ثلاثة من صناديد المشركين ، وفى دقائق معدودة فتك المسلمون بأندادهم ، فكان هذا استفتاحا حسنا للقتال ، وهنا أمر رسول الله بذلك الأمر الحكيم ، أمر الكتيبة الاسلامية أن تتراص وألا تتحرك من مكانها ، وأن تصد بالنبال خيل العدو وهى تأتيها من جوانبها . فرأت قريش لأول مرة كيف تثبت الراجلة أمام حملات الخيالة غير هيابة ولا مرتبكة ، وللخيالة كما قدمنا هيبة عظيمة فى هجومها ، يعرفها الذين مارسوا الحرب وشاهدوها . حمى الوطيس ورسول الله يدعو ويحرض على القتال ، والمشركون على عديدهم وعدتهم واستبسالهم ، يحاربون قوما قد امتنعوا بسيوفهم ، وآثروا الموت على الحياة . انتهى الأمر بهزيمة المشركين ، فانطلق المسلمون فى اثرهم ، وأثخنوا

فيهم ، لا يلتفتون الى نهب ولا سلب ، كعادة العرب فى ذلك العصر ، حتى انقلبت الرجعة القرشية فرارا مخزيا ، وانكسارا غير مسبوق لقريش .

كانت قتلى قريش فى هذه المعركة خمسة أمثال قتــلى المسلمين ، وكان أسراهم مثل قتلاهم ، ولكن ليس المهم فى بدر عدد من دفنت من القتلى ، ولا عدد الأسرى ، ولا مقدار الغنائم ، وانما المهم هو أن قريشا دفنت فى وادى بدر سيادتها على الجزيرة العربية . وليس الأمر الخطير هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجع بأعدائه مكبلين الى يثرب ، وانما هو أنه رجع بالسيطرة العسكرية وقد انتقلت من مكة الى المدينة .

رجع النبى الى المدينة وقد ثبت أن النظام العسكرى الذى استحدثه هو نظام يفوق ما يعلمه أهل العصر ، فوضع فى بدر قواعد الجيش الاسلامى ، وكانت هذه الكتيبة نواة له .

ومنذ بدر والاســلام ينتشر ، وجيوشه تســير الى المشرق والمغرب ، تطوى الممالك ، وتثل العروش ، وتتغلب على العقبات بأمرين : حب النظام ، واحتقار الموت ، ولا يزال هذان الأمران دعامتى النصر ، ولن ترجع للمسلمين سيادتهم الأولى حتى يقيموا حياتهم وجيوشهم على الأساسين اللذين وضعهما رسول الله ، واللذين مكنا له فى بدر برغم العدة والعدد والبسالة التى كانت لخصومه .

دفاعه عن حرية العقيدة

وقفنا عند بيان قصد الرسول من حركاته العسكرية ، ووقعاته مع المشركين ، وقلنا : ان الأساس هو الوصول الى حرية الدعوة ، بل اليها والى حرية العقيدة للأديان السماوية جميعا ، وقلنا : انه ليس أدل على هذا القصد من هدنة الحديبية بل ليس أدل عليها من القرآن نفسه ، انظروا الى هذه الآيات :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » فالاذن بالقتال معلل باضطهاد العقيدة ، ومصادرة حرية الناس فى أن يقولوا ربنا الله ، وتلك هى الآية التى شرع بها القتال ، ثم هذه الآية « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » ففيها أيضا الأمر بالقتال معللا بمنع الفتنة ، وهى الاكراه على تغيير العقيدة ، فان انتهى الأعداء عن هذا الاكراه ترك أمرهم الى الله ، وكذلك قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » فالقتال هنا مبرر بالدفاع عن الحرية ، على أن لايتجاوزها الى العدوان . ثم انظروا الى الآية الآتية كيف جعلت القتال مبررا بالدفاع عن حرية الأديان السماوية جميعا ، وجعلت الغاية منه أن يتمكن المسلمون من اقامة الصلاة ، والبر بالمساكين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى

الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

واضح من كل هـذه الآيات غرض الاسـلام من القتال ، وهو منع الفتنة واضطهاد الناس ، وردهم عن عقائدهم قسرا .

تلك الفتنـة التى هى أكبر من القتل ، وأسـوأ عاقبة من الحرب : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير . وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » . فغرض النبى كما هو جلى من القرآن ، هو الدفاع عن حرية العقيدة ، وقتال المشركين حتى يسلموا باحترام هذه الحرية .

ولما استقر لمحمد الأمر فى المدينة ، وصفت أحـوالها ، وخلصت له ، وأدرك أعداؤه أن لا أمل لهم فى مهاجمتها ، ورجحت قوى الدولة على ما حول يثرب من المشركين واليهود ، كما استقرت هيبته فى نفوس القبائل ، وسار بحديثه الركبان فى جزيرة العرب كلها ، وأصبح تام السلطة على الطرق الى مكة ، فحصرها وقضى على حرية تجارتها ، وصـار بذلك قريبا من وضع السيف فى غمده ، لحظ بثاقب نظره أن الساعة قد أتت لهدنة مع مكة ، فسار فى جيش من الأنصار والمهاجرين وحلفائهم وساق الهدى ، وأعلن أنه يريد الحج ولا يريد قتالا .

سمعت به قريش فخرجت لتصده عن البيت ، واستعظمت أن يدخل عليها هذا الدخول ، وأبت أن يتحدث العرب بأن محمـدا طاف بالبيت ، وجاء مكة فى منعة من قوته ، فتحالفوا وتعاهدوا على ألا يدخلها عليهم أبدا ، وكان جيش محمد على تمام الاستعداد لاقتحام ديار المشركين اذا منعوه فى الشهر الحرام ، من حق لجميع العـرب ، وهو حج البيت ولـكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يرغب فى شىء آخر ، فقد عقد العزيمة منذ خرج من المدينة على ألا يقاتل ، وجعل السـلم نصب عينيه ، ومحمد صلى الله

عليه وسلم لايرده عن عزمه شىء ، ولا يحوله عن مقصده أحد ، قد اجتمعت له العزيمة الصادقة والحكمة والأناة .

تلقى عنت قريش بالصبر ، فسلك طريقا وعرا بأصحابه حتى لايصطدم بأعدائه ، وحتى يعطيهم فرصة للتفكير فيما هم مقدمون عليه ، وقال : لا تدعونى قريش اليوم لخطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها . فلما نزل الحديبية فى حرم مكة بالغت قريش فى عنادها ، وأبوا الا أن يرجع بالهدى وقد ساقه ، وألا يطوف بالبيت وقد أحرم للحج والعمرة .

ولما أرسل من يؤكد لهم حسن قصده ، عقروا بعيره ، وهموا بقتله ، فاستمر فى ايفاد الرسل ، والنصح لهم فما ازدادوا الا طغيانا وكبرا ، وبعثوا رجالا ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر محمد ليصيبوا لهم من أصحابه ، فأخذوا أخذا ، وأتى بهم الى رسول الله ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم .

أنتج هذا الصبر المحمدى نتيجته سريعا ، فعلمت العرب أنه لايريد قتالا ، ولا يضمر شرا ، وأخذ أحسن حلفاء قريش ينفضون أيديهم من اثمها ، وأعلن زعيم الأحابيش أنه لا يرضى عن صد الناس عن البيت ، وأنهم لم يحالفوا قريشا على شىء من هذا ، ونصح لهم اخوانهم من ثقيف بعدم التعرض لمحمد ، وأرهبوهم من بأس المؤمنين معه ودنت بذلك الغاية التى أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى المهادنة واحلال السلم محل القتال ، فجاءه سهيل بن عمرو مفوضا من قريش ، ليصالحه على أن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى فى العام القابل ، فيحج ويقيم فى مكة ثلاثة أيام ، بعد أن تخيلها له قريش .

شق على المسلمين أن يرجعوا ، ولكن الرسول قبل ذلك ، وجرت المفاوضات على هدنة لعشر سنين ، فاشترطت قريش أن من يلجأ فى أثنائها الى محمد من غير اذن وليه يرده الى قريش ومعاهديها ، وألا ترد قريش وحلفاؤها من يلجأ اليها من أصحاب محمد .

فلما قبل الرسول هـذا الشرط وثب عمر بن الخطاب ، فأتى النبى ، فقال : يارسـول الله ، ألست برسـول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا !؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى !.

كاد الناس يهلكون مما دخل عليهم من أمر هـذا الصلح وشروطه ، ورجوعهم عن زيارة البيت ، ولكن التربية المحمدية ، والعزيمة القوية التى أظهرها الرسول باصراره على اقامة السلم ، أقرت الأمور فى نصابها . فلما جلسوا لكتابة العقد ، تجلى صبره مرة أخرى ، فانه دعا على بن أبى طالب ، وقال له : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مفوض قريش سهيل بن عمرو : أمسك ، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم . قال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر ، فقال سهيل : أمسك ، لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، وهنا يظهر انصاف محمد وسعة صدره ، وينجلى سر من أسرار عظمته ، وهو قصده دائما الى الجوهرى من الأمر ، واستصغاره للأشكال والمرسومات .

عقدت الهدنة ، ورجع المسلمون وهم كارهون ، ووسوس الشيطان فى نفوس بعض الناس لما قبل الرسول شرط تسليم من لجأ اليه على ألا يطلب من لجأ الى عدوه ، وأن يرجع عن الحج كما أرادت قريش بعد أن أحرم له ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشـغله شىء الا الوصول الى حرية الدعوة فى ظلال السلم ، ويعلم أن ذلك هو الفوز .

وبينما هم فى الطريق نزلت سورة الفتح ، فسمى القرآن هذا الصلح البغيض فتحا مبينا « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما » . وقد تحقق بعد

صدق نظر الرسول ، ووعد الله ، فدخل الناس فى دينه أفواجا ، ولم يمض سنتان على صلح الحديبية حتى دخل فى دين الله أضعاف من دخلوا فى السنوات العشرين السابقة فكانت هذه الهدنة التى أرادها الرسول على رغم أنف أصحابه ، ورغم أنف قريش وعنادها وعنتها ، بركة على الاسلام ، لم ير قبلها فتحا أعظم منها . وقد انقلب حتى ذلك الشرط البغيض من تسليم اللاجىء المؤمن الى الكفار يؤذونه ويفتنونه الى الخير ، فكانت قريش بعد سنة من الصلح تحاول التخلص منه وأن يقبل محمد صلى الله عليه وسلم الغاءه ، وذلك أن بعض المستضعفين من المسلمين كانوا يلجأون الى النبى فيسلمهم ، وفاء بعهده ، فلما سلم أبا بصير فر الى جهة فى ساحل البحر ، وصار يفر اليه أمثاله ممن لا يستطيعون الالتجاء الى المدينة ، حتى تكاثروا وقطعوا الطريق على تجارة مكة ، وعاد اليها البلاء وضجت ، واستجارت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسألته بصلة الرحم أن يؤوى أبا بصير واخوانه ، وأن يعفيها من ذلك الشرط ، ويدخل من يلجأ اليه فى عهده ، فقبل ، وكانت هذه آية من آيات السياسة المحمدية ، وفضلا من الله على أخلص عباده .

قبل النبى رجاء أعدائه ، فأمن لهم تجارتهم ، وأثبت أنه لا يريد بالحرب الا تقرير حرية الدعوة ، وحرية العقيدة ، وأنه لا يريد نهب تجارة مكة ، ولا الانتقام منها كما يظن بعض كتاب الملل الأخرى .

فهو الذى كبح جماح جيشه ليقبل شرطا بغيضا فى سبيل السلم عشر سنين ، فى الوقت الذى تمت سيطرته على طرق المواصلات التجارية لمكة فى الشمال ، بل كان فى مكنته أن يتعرض لطريق الجنوب بين مكة والطائف . واستدعاء أبى بصير وصحبه ، وهو غير مسئول عنهم ، ممتعا بالسلم الذى أراد ، يبين فساد ما ذهب اليه هؤلاء الكتاب .

ولما اطمأن الى صلح يكفل له الأمن من ناحية قريش ، اتجه الى مكاتبة الملوك والعظماء فى أنحاء العالم ، يدعوهم الى دينه ، ووجه حركاته العسكرية

الى الروم ، الذين أخذوا يقـاتلون دعاة الاسـلام ، ويضطهدون الدعوة المحمدية ، فكان صلى الله عليه وسلم بارعا ، بعيد النظر فى اغتنام أول فرصة لنقل ميدان الكفاح العسكرى بسرعة من قلب الجزيرة الى أطرافها ، فاستشعر العرب سمو مطلبه ، وبعد غايته ، وبذلك جمعهم تحت لواء القومية المتحدة ، فكانوا عدة صالحة لدعوته العالية .

سارع الى العمل ، وقـد أدرك بثاقب بصره أن الدولة الرومانية لن تصبر على ظهور دولة للعرب بالمدينة ، وأنها سائرة اليه فى النهاية ، وأنه ما غزى قوم قط فى عقر دارهم الا ذلوا ، فنقل الميدان بسرعة مدهشة ، تدل على فطنة فى السياسة ، ودراية فى الحرب منقطعة النظير .

ومنذ أن غزا الروم فى مؤته ، وسهام العرب ، وآمالها تتجه الى غاية أسمى من الثأر والانتقام والنهب ، وحالتهم المعنوية تسمو من درك التناحر الأهلى الى مقام الكفاح العالمى ، لغرض أعلى من متاع الدنيا .

وهكذا تدرج محمد صلى الله عليه وسلم من العشيرة ، الى الوطن ، الى القومية ، الى الدولة العالمية ، فاتخذ لهذه الدولة العالمية العرب ، ونفخ فيهم من روحه ، وبعثهم بالرسالة للأكاسرة والقياصرة ، فحملوهم عليها ، وقامت دولة الاسلام ، لاتعرف عصبية ولا عنصرية ، ولا لونا خاصا ، ولا شيئا غير التقوى يمتاز الناس بها . ومنذ أن انصرف الى الشمال بعد صلح الحديبيـة أدرك كل رجل ذى بصيرة من خصـومه سـواء أكان فى قلب الجزيرة أم فى أطرافها ، أن واجبه أن ينطوى تحت اللواء الذى رفعه محمد صلى الله عليه وسلم للأمة المشتتة المتناحرة المحتقرة فى نظر جيرانها من الروم والفرس ، فسارع الى هذا اللواء خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص بطلا قريش ، وبطلا الاسلام فيما بعد ، وسيدا مخزوم وسهم ، أشد بطون قريش عداوة لمحمد ودعوته ، فكان هذا فاتح العراق وبطل المشرق ، وذلك فاتح مصر وبطل المغرب .

نقضت قريش لقصر نظرها ، عهد الحديبية لما ظنت أنه تورط فى قتال الروم ، فنصرت بكرا على خزاعة حلفاء النبى ، فسارع كما هى عادته بصدق عزيمة ، وحسن فراسة ، الى قبول نكثها للعهد ، ورفض تجديد العقد وعبأ قواه ، وكتم سره وتحرك فى عشرة آلاف الى مكة ، فدخلها بغير حرب .

وأقول بغير حرب لأن المقاومة الضعيفة التى أبداها عكرمة ، وصفوان ، وسهيل فى الجهة التى دخل منها خالد ، لا تدل على شىء غير استسلام مكة . وعجز قريش التام .

وبفتح مكة توجت سياسة الرسول الحسنة ، وحكمته فى تصريف الأمور بأعظم جزاء من الله ، واستقرت الدولة المحمدية فى جزيرة العرب على أقوى الدعائم ، وأمتن الأسس ، ورجع البيت كما كان على عهد ابراهيم مقرا للتوحيد ، منزها عن الشرك ، قبلة للعاكفين والقائمين والركع السجود لله وحده .

مثل من سياسته

تكلمنا فى الفصول السابقة عن حسن سـياسته صلى الله عليه وسلم وحكمته فى تصريف الأمور ، فتناولنا بعض دعائم هذه السياسة ، وخططها الرئيسية ، لنتبين عظم هـذه النـاحية فى ذات بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم .

والآن نريد أن نسـوق بعض الأمثلة من تصرفاته فى بعض المـواقف والحوادث الطارئة ، لتتجلى صورة الكياسة ، وسـلامة الذوق ، وحسن التقدير ، ونكون بذلك قد أثبتنا على قدر جهدنا شيئا من صفاته وأخلاقه ، يقرب الى الأذهان مثله الكامل .

وهاكم موقفـه مع عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنـافقين ، وسيد الخزرج عقب وقعة بنى المصطلق (١) .

كان قوم عبد الله حين جاء النبى الى يثرب مهاجرا ، ينظمون له الخرز ليتوجوه ، فلما عظم شأن الرسول تداعى سلطان عبد الله ، وأضمر الشر ، وظهر ما فى نفسـه يوم بنى المصطلق ، والرسول فى شـغل بعدوه ، فكاد عبد الله يرسلها فتنة تحرم المسلمين ثمار نصرهم ، بل تذهب بريحهم .

ذلك أن أجيرا لعمـر بن الخطاب ازدحم على ماء مع رجل من حلفاء الأنصار ، فاقتتلا ، فصرخ الأجير : يا معشر المهاجـرين ! وصرخ الآخر : يا معشر الأنصار ! فغضب عبـد الله بن أبى ، وقال : أو قد فعلوها ؟ قد

---

(١) بنو المصطلق : من خزاعة ، وقد غزاهم النبى بالمريسيع فى شعبان سـنة ست .

نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب (١) قريش هذه الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم .. والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا الى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن الأرقم ، فمشى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال صلى الله عليه وسلم : فكيف ياعمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس فى ساعة مبكرة ، ماكان الرسول يروح فيها ، فمشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسوا ، وليلتهم حتى أصبحوا ، وصدر يوم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياما . وهكذا نهك أبدانهم بالسير ، ليصرفهم عن الحديث فى الفتنة ، فلما بلغ المدينة جاءه عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه ، فقال : يا رسول الله ، انه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل اليك رأسه ! فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ! وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال صلى الله عليه وسلم ، بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا ، وجعل بعد ذلك اذا حدث الحدث من عبد الله كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتله يوم قلت لى :

---

(١) جلابيب قريش : هو لقب لمن كان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون . وأصل الجلابيب الأرز الفلاظ ، واحدها جلباب ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقبوهم بذلك (من شرح أبى ذر على السيرة) .

اقتله ، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

فى هذه القصة الصغيرة ترون كيف توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر والأناة فى أحرج الأوقات ، وترون حزمه فى كبح جماح الفتنة بالسير ليل نهار ، حتى صرف الجيش بالنصب عن أن يلج فيها ، وفى هذه القصة صورة موفقة من الرفق فى السياسة والحزم فيها .

ثم هاكم مثلا آخر : كان رسول الله يوزع العطايا بعد حنين فوقف عليه رجل من تميم ، فقال : يامحمد ، قد رأيت ماصنعت فى هذا اليوم ، فقال رسول الله : أجل ، فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت .. فغضب النبى ، وقال : ويحك ! اذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون ؟ فقال عمر : يا رسول الله ألا أقتله ؟ فقال : لا ، دعه فانه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين ، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .

وقد كانت الخوارج المتشددة بعد ذلك فى تميم .

ولما أعطى النبى قريشا وقبائل العرب ، ولم يعط الأنصار شيئا كثرت من الأنصار القالة حتى قال بعضهم : لقى والله الرسول قومه ! فجمعهم النبى ، ثم قال : يامعشر الأنصار ، ماقالة بلغتنى ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بل الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تجيبون يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيب ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يامعشر الأنصار من لعاعة (١) من الدنيا ، تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟

---

(١) اللعاعة : واحدة اللعاع ، وهو النبات الأخضر قليل البقاء ومنه قولهم : ما بقى فى الدنيا الا لعاعة أى بقية يسيرة ، ومنه الحديث « أوجدتم ... » اللسان .

ألا ترضون أن يذهب النـــاس بالشاة والبعير ، وترجعــوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ! لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا !

هذه العبارة الآخذة بالقلوب ، والصاعدة بالنفوس البشرية الى درجة الملائكة ، والقاتلة للفتنة ، والمنعشة للأرواح ، تفسر لنا كيف كان رسول الله يجمع الناس على غرض واحد بوسائل شتى . لقد أتى بسعة الصدر ، وحسن التصرف بما يشبه المستحيل ، فجمع أمة لم تكن لتجمع الا على مثل التربية والتدبير المحمدى .

جاءه وفد من بنى الحارث بن كعب ، وكان قد بعث فيهم خالد بن الوليد ، فقال : لو أن خالدا لم يكتب الى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا ، لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم . فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ، وماحمدنا خالدا .. قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك . قال : صدقتم ، ثم قال : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا ، قال : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ، قالوا كنا نغلب من قاتلنا يارسول الله أنا كنا نجتمع ولا تتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال : صدقتم .

انظروا الى رده : « فمن حمدتم » ؟ لتتصوروا الأناة وسعة الصدر ، وهما من أسس السياسة المحمدية .

وكان من دواعى النجاح فى سـياسة الرســول زيادة على أخذ الأمور بالرفق ، وحسن المعاملة ، فراسته التى لاتخيب فى الرجال ، وتطلعه الىغائب الأمر بحسن الاستخبار ، فقد كان أعرف النـــاس بالناس ، وأعرف العرب بحسنات العرب وسيئاتهم ولهجاتهم وما يحبون وما يكرهون ، فهو يستقصى دائما الأخبار ، ويكتم ما يكره ذيوعه منها ، ففراسته فى سهيل بن عمرو مثلا

وهو أسير ، قد تحققت بعد سبع سنين ، لما همت مكة بالردة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فعندما ردت قريش أسرى بدر ، وكان عمر يعارض فى الفداء ، فاستأذن رسول الله فى أن ينزع ثنيتى سهيل بن عمرو ليدلع لسانه ، كى لا يقوم على الرسول خطيبا بعدها فى موطن أبدا ، أبى الرسول ، وقال : لاأمثل به ، فيمثل الله بى وان كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لاتذمه . فلما ارتدت العرب وهم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الاسلام وخافهم عتاب بن أسيد عامل النبى على مكة فتوارى ، قام سهيل بن عمرو ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب ، واستقرت الأمور .

ذلك هو المقام الذى أراده رسول الله فى رده على عمر بن الخطاب ، وتلك هى فراسة الرسول فى الرجال ، تحققت بعد سبع سنين .

ولما أخذ الخمس من غنائم هوازن وزعه بين أعدائه بالأمس ، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، والحارث بن هشام ، وكثيرا غيرهم ، لم يدع لأحد من المؤلفة قلوبهم حاجة الا قضاها ، وبذل للشعراء مثل ابن مرداس حتى أرضاهم . فلم يكن عنصر الجود والبذل عنصرا مفقودا فى سياسته صلى الله عليه وسلم .

جاء نفر الى الرسول ، فقالوا : انا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وانا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فوعدهم أن يأتيهم بعد أن يرجع من غزوة تبوك ، وكان قد عزم عليها ، فلما رجع علم أنهم يتآمرون فيه على الشر والفتنة ، فأمر به أن يحرق ، فأحرق وفر من فيه . وهو مسجد الضرار الذى يقول فيه القرآن : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين » .

وكذلك بلغه أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله والخروج معه لغزو الروم ، فبعث اليهم طلحة بن عبيد الله ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل ، وتفرق من فى البيت .

فى هذين المثلين ترون محمدا الواسع الصدر اللين العريكة المتسامح يحرق مسجدا وبيتا للفتنة والتآمر ، ذلك لأن محمدا رجل دولة حاذق ، يداوى كل حالة بما يناسبها من الرفق أو الشدة .

وكان يكره العجب والتظاهر ، وليس فى كل حياته شىء منه ، ولكنه أمر به حين دخل الى مكة بعد هدنة الحديبية ، وقد تحدثت قريش أن محمدا وأصحابه فى عسر وضعف ، فصفوا له عند دار الندوة ، لينظروا اليه والى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد اضطبع بردائه ، وأخرج عضد يده اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه ، حتى اذا واراه البيت منهم ، واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول لذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها ، وقد صنع ذلك لما بلغه من قولهم عن ضعفه وضعف أصحابه .

ولما حاصر الأحزاب المدينة ، ونقض بنو قريظة عهدهم ، وانتهى الى النبى وأصحابه الخبر ، بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهم ليحققوا له الخبر ، وقال لهم : ان كان حقا ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فالحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وان كان الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس . فلما رجعوا سلموا على الرسول ، ولمحوا اليه بأن قريظة غدرت بعهده ، فقال صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

فأنتم ترون فى هاتين القصتين حكمة القائد الأعلى فى بث الرعب فى نفس العدو بالتظاهر بالقوة ، والمحافظة على الروح المعنوى عند الأنصار ، بالتظاهر بعدم الاكتراث ، والتصغير من شأن العدو .

كان صلى الله عليه وسلم حسن الاستخبار ، حسن التكتم للأسرار ، وكان من بعض ما يلجأ اليه من اخفاء حركاته العسكرية أن يكتب للقائد كتابا يأمره فيه ألا يفضه الا بعد أن يصل الى مكان معين ، أو بعد أن يسير زمنا معينا .

كان ثابت الرأى ، صادق العــزيمة ، ما دخله عجب ولا زهو : ذهب بسياسة اللين الى منتهى حكمته ، ولجأ الى القتال لما لم يبق الا القتال دفاعا عن النفس والعقيدة ، فأظهر فى الصبر واللين آيات السياســة ، وفى الجهاد والقتال غايات البراعة اتسع صدره للرجال والحوادث ، فأثر بشخصه وقوله وعمله فى جميع من حوله ، ومن اتصل به ، فكان مدرسة الرجال ، أخرجت من فتحــوا الأرض ، ونظموا الممــالك ممن لم يشــتغلوا فى مــكيدة ، ولا استعجزوا فى شدة .

من آثار دعوته

هذا الموضوع لا يلم أطرافه الا مجلدات ، ولذلك عزمت على حصره فى دائرة يسمح بها هذا الفصل الموجز ، فلا أتعرض الا للآثار الخالدة للدعوة المحمدية ، الآثار التى لايحدها مكان ولا زمان ، وأن أتخير منها ما هو واضح ، وما هو موضع اعجاب الناس كافة ، مهما اختلفت عقائدهم أو مذاهبهم ، ولعلى بهذا أوضح صورة أخرى لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم تكمل تلك النواحى البارزة فى حياته الخالدة .

١ ــ فى المجتمع

وأول ما خطر أن أوجه التفكير اليه ، هو أثر هذه الدعوة من الناحية الاجتماعية ، فى شعب لم يكن يصلح لشىء ، فأصبح فى بضع سنين صالحا لحمل الرسالة التى وصلت الى أطراف المشرق ، فى سنين معدودة . هى أقل من عشرين سنة .

كان الأثر البارز السريع لهذه الدعوة تغيير أمة تغييرا شاملا حاسما ، بحيث أصبحت شيئا آخر ، تلك الأمة التى نشأت فيها الدعوة : الأمة العربية .

كان العرب قوما فوضى ، فى قفر من الأرض ، موضع احتقار المتمدينين من الفرس والرومان ، وآخر أمة يرجى فيها خير وينتظر لها أمر . كان العرب فى جاهليتهم قبائل متنازعة على الحياة ، متنافسة فى السؤدد ، يتنازعون على

مواقع الغيث ومنابت العشب ، كل قبيلة تعتز بقوتها ، وتفتخر بأنسابها ومآثرها ، وما فخرها وعزها الا فى أنها أغارت فغلبت ونهبت ، وأنها ظلمت وأفسدت ، فالظلم والنهب عندها محمدة وهو من أغراض الحياة .

انظروا الى قول عمرو بن كلثوم :

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

وقول زهير :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وانظروا قول القطامى ، وهو شاعر اسلامى يصف بقية الجاهلية فى القبائل الاسلامية :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فان فينا قنا سلبا وأفراسا حسانا
وكن اذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة انه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا أخانا

هذا الشعر يصور لنا الحالة العقلية التى كانت عليها القبائل العربية ، ويدلنا على عظم الدعوة التى جعلت من قوم يفخرون بنهب أخيهم ، قوما يعتزون بنشر السلام والقانون ، والعدل بين الأبيض والأسود فى آسيا وأفريقية ، هؤلاء الجفاة المتنابذون قد أصبحوا فى جيل واحد رسل الحضارة والنظام . كان الرجل منهم لا يعترف الا بقبيلته ، فاذا تنازعت لا يعترف الا بالبطن الذى ينتسب اليه ، وينكر على غير عشيرته حق الحياة . وكان أفراد العشيرة لا يتعاونون ، ولا يتكاتفون على خير عام ، بل لا يفهمونه ، لأنهم ينكرون وجود الأمة العربية انكارهم للبشرية . ويرون الحياة قائمة على الخصومة والعداء لكل أحد خارج عن نطاق العشيرة ، فكانت العشيرة على هذا الاعتبار عصابة متكافلة على حماية نفسها ، واتيان الشر ما استطاعت

الى ذلك سبيلا ، والاعتزاز بالقدرة عليه ، وأنها تأتيه دائما ، فجاءت الدعوة المحمدية تنقض كل ما يتمسك به العربى من هـذه المواريث ، فحلت هذه العصابة الموجهة للشر باسم العشيرة ، وأحلت محلها الأمة ، وأقامت الحقوق البشرية ، وجعلت التعاون على البر ، والتكافل على النظام العام ، والاتحاد على الفكر السامى والعقيدة الطاهرة مكان علاقة الدم التى تربط بين الناس فى سفك الدم ، ونهب ما بأيديهم ، فقلبت بذلك نظرة العرب الى نقيضها ، وجعلتها نظرة انسانية الهية ، بعد أن كانت بهيمية وحشـية ، أحلت سلطان الشريعة فوق كل سلطان ، وجعلت هيمنة الدولة للخير العام فوق كل هيمنة ، وذهب القصاص الظالم ، وقام القصاص العادل ، وصارت المسئولية الفردية للعشيرة ، مكان المسئولية الاجتماعية لها : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل نفس بما كسبت رهينة » . « وأن ليس للانسان الا ما سعى »وصارت العزة للشرع القاهر ، والسـلطان القائم عليه ، وحرمت دعـوى الجاهلية : بالفلان ، وأصبح كل داع فللشرع دعوته ، وبالقانون انتصـاره ، وبالعدل اعتصامه .

برزت المسئولية الشخصية ، فما يغنى عن أحد دعوى الجاهلية ، ولا يغنى عن أحد فى ميدان العمل نسبه ولا حسبه ولا جاهه ولا ماله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . « انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السـموات أو فى الأرض يأت بها الله » .

أصبح الناس بالدعوة المحمدية سواء ، لا شريف ولا وضيع ، خيرهم أحسنهم عملا ، وسيدهم أنفعهم ، وأكرمهم أتقاهم « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمـكم عند الله أتقاكم » . انظروا الى محمد صلى الله عليه وسـلم فى خطبة الوداع ، يعلن هذه المساواة للعرب على أنها للبشر كافة « أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

تلك هى الكلمة الخالدة التى كانت دستور الحكم فيما فتح العرب من الأرض ، فجعلت الفتح العربى بعيدا من رفعة قوم على قوم أو جنس ، فلم يصبه ما أصاب غيره من الفتوح ، وبقيت آثاره خالدة فى المشرق والمغرب .

قضت الدعوة المحمدية على التنافس والغلب بالكيفية التى سقتها ، وأحلت هذا التنافس والغلب لاقرار الحق ، وبسط الخير ، ولم يبق فى الشرع الذى قبله العرب الا تنافس فى الأعمال الصالحة « فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وهكذا حلت الأمة محل القبيلة ، والعدل مقام الغلبة ، والمساواة مكان التفاضل والعمل الصالح مكان الفخر بالآباء ، وملئت القلوب حبا وسلاما ، بعد أن كانت مملوءة بغضا ونزاعا « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... الى قوله : لعلكم تتقون (١) » .

كان قلب العربى موزعا بين آلهة شتى ، قد التبست عليه صفاتها وأفعالها ، يفزع اليها حينا ، وينفر منها حينا ، ويلتمس منها الخير ، فان لم يظفر به هجرها وسبها ، كما يفعل الآن زنوج السودان مع « كجورهم » يسألونه المطر ، ويصبرون عليه ، فاذا يئسوا من الرحمة قتلوا « الكجور » وهو معبودهم .

لم تكن أمام العربى سبيل واضحة للعمل فى هذه الحياة ، كما لم تكن له خطة بينة لمعاملة الناس ، فلقنته الدعوة المحمدية الايمان باله واحد ، وهدته الى الحلال والحرام فى كل صغيرة وكبيرة ، فصار على بينة من ربه وعلى بينة من نفسه ، وعلى بينة من عمله .

وعقيدة المسلم علمته التوحيد فى كل شىء ، علمته أن الله واحد ، وأن أصل البشر واحد ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن الأمم جميعا سواء ، وأن الأديان التى جاء بها الرسل واحدة ، لا تختلف فى حقائقها

---

(١) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام .

ومقاصدها ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ... » الخ . ووحدت له الخطة التى يعمل عليها فى خاصة نفسه ومعاملة الناس . وحدت الدعوة المحمدية نفس العربى ، ثم وحدت العرب جميعا ، وصاغت منهم أمة واحـدة ، وحملتهم رسالة التوحيد الى الناس كافة ، ليجعلوهم أمة واحدة .

فهذه الأمة الواحدة المؤلفة من أرقى الموحدين هى التى انبعثت بسبب هذه الدعوة ، فلم يقف فى سبيلها شىء ، لا كثرة العدد ، ولا قوة السلاح ، ولا العقائد الموروثة ، ولا عظمة الملوك ، ولا تجبر الرؤساء ، بل كانت قدرا من الله بلغ غايته ، ومن ذا يرد على الله القدر ؟!

هذا التوحيد هو عنـدى أظهر معجزات الدعوة المحمـدية . وليدرك الناس وجه الاعجاز ، يجب أن ينظـروا الآن الى جزيرة العـرب نفسها وقد شملها الاسلام قرونا ، ثم عادت فيها سيرة الجاهلية بحالة أخف كثيرا ، بل أهون مائة مرة مما كانت عليه قبل ظهور رسالة التـوحيد فيها ، وليقدر كم يلقى الذى يريد أن يبعث هـذه الأمة مرة أخرى من عنت ؟ ان كثـيرا من المصلحين ليتحطمون على عتبة الاصلاح قبل أن يصلوا الى شىء مما وصلت اليه الدعوة المحمـدية فى بضـع سنين . اذا تصـورتم الحالة الحـاضرة ، وقستموها على الحالة وقت ظهور الدعوة يمكنكم أن تتصوروا أثر الدعوة المحمدية وقوتها وفضلها على هذه الأمة ، وعلى الناس كافة .

جاءت الدعوة المحمدية مع رسالة التوحيد هذه برسـالة أخرى ، هى رسالة التحرير ، وتركت فى هذه أثرها الخالد فى الأمة العربية وجميع الأمم كما تركت فى الأولى ، فصرخ مؤذن هذه الرسـالة : الله أكبر ! وتضـاءلت بهذه الصرخة كل عظمة ، وكل سيطرة أمام عظمة الله وسيطرته ، وتحررت النفوس من الأوهام الباطلة ، والعقائد الكاذبة ، وصارت العبودية خالصة لله ، يتساوى الناس فيها ، ويتحررون بذلك من سواها .

وهذا الذى انفرد بالسلطان والسيادة وحق العبودية هو الله « هو الذى

يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما » هو الله « والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » هو « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » .

بهذه المعانى السامية ، والعبارات القوية ، بهذه الآيات الكريمة وأمثالها تحررت النفوس من العبودية لغير خالقها البر الرحيم بها ، هاديها الى النور والى صراط مستقيم .

وكان الناس قبل الدعوة المحمدية عبيدا للملوك والزعماء ، عبيدا للرؤساء الدينيين ، عبيدا للأوهام والخرافات ، عبيدا لملاك الأرض وملاك الثروة فتحرروا بهذه الدعوة المحمدية ، تحرروا فى أبدانهم ، وأعظم من ذلك أن تحررت نفوسهم بما وهبت لها الدعوة من عقيدة الخلود وعزته ، وأن عملها ليس أثرا بائدا بل مسجلا خالدا خلود قوانين الله فى خليقته .

علمت الدعوة المحمدية الناس أن النفع والضر بيد الله وحده ، وأن لا واسطة بين الانسان وربه ، وأن ربه أقرب اليه من حبل الوريد (١) ، وأنه معه حيثما كان ، وأن ليس لأحد سلطان على قلبه ، وليس للرسول نفسه الا التبليغ والتعليم « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا » .

بهذا أدرك الانسان مكانته ، ونال حريته فى عقله وقلبه وفكره وعمله ، وبقى للدعوة المحمدية أثرها الخالد فى توحيد الناس وتحريرهم .

وليس أجمع لدرجات نمو النفس المسلمة من وصف محمد لنفسه ، وهو كما رواه على : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب

---

(١) حبل الوريد : عرق فى العنق . اى نحن اعلم بحاله ممن كان أقرب اليه من حبل الوريد تجوز بقرب الذات لقرب العلم (لأنه موجبه ، وحبل الوريد مثل فى القرب . (انظر تفسير البيضاوى) .

أســاسى ، والشــوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقــة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

***

٢ ـ فى الفرد

ولكى نستعين على تصور هذا الأثر فى الفرد لنستحضر أمامنا مثلا عمر ابن الخطاب .

كان عمر فى جاهليته فتى من فتيان قريش ، يغشى مجالس السوء ، وبؤر الشر ، وكانت مــكة فى ذلك العصر ممتــازة بين حواضر الجــزيرة بترفها ومنكرها ، تجذب طلاب الطرب واللهو ، ولم يكن عمر فى هذه المدينة شاذا ، بل كان معلما بالفتوة والغلظة ، معروفا بالقسوة والشراسة ، مستعدا فى كل الحالات للتسلط بالأذى على من يخالفه ، ولاثارة الفتنة والشغب فيما جل أو صغر ، لذلك كان من أخطر فتيان مكة على الدعوة المحمدية ، وأنشطهم فى أذى أتباعها ، فلم يسلموا من لسانه الجارح ، ويده الباطشة . ولما رأته ليلى بنت أبى حنتمة وله رقة لم تكن تراها ، ذكرت ذلك لرجل من المسلمين، فقال لها : أطمعت فى اسلامه ؟! انه لايسلم حتى يسلم حمار الخطاب .. هذا الذى لم يكن تلاميذ محمد يطمعون فى هــدايته أكثر من طمعهم فى هداية الحمار ، هو الذى جذبته الدعوة ، فلما هذبته وصقلته ، أخرجت منه عمر أمير المؤمنين، قاهر الفرس والروم ، وجعلت منه المثل الكــامل فى الــرفق والانصاف ، والعدل ، وأكبر القضاة والسياسيين والملوك فى تاريخ البشر .

فعلت الدعوة المحمــدية فعلها فى الفرد ، ثم شمل ســحرها الجماعة ، فبدلت الناس غير الناس ، والأرض غير الأرض .

خلصت الفرد من سلطان العقائد الباطلة ، وأصلحت قلبه وفكره بالعقائد الصحيحة ، وهذبت نفسه بالشرائع القويمة ، والسنن الصالحة ، والقدوة الحسنة التى وجدها فى المثل الأعلى ، فى محمد صلى الله عليه وسلم : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

أقرت الدعوة المحمدية فى نفوس أصحاب محمد حب العدل وحب الانصاف ، فى بيئة لاتعرف الحق الا للقوة ولا تدين بالانصاف الا للسيف ، فوطأت النفوس للحق . انظروا الى عمر بعد أن هذبته الدعوة ، تعترضه امرأة وهو أمير المؤمنين يخطب الناس ، فيمسك من فوره ، ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! وانظروا اليه وقد شج رأس أخته فى الجاهلية يبكى وهو أمير المؤمنين لرؤية بائس ، ويخشى أن يلقى الله وفى الناس بائس .

تلك آثار الدعوة فى نفوس جفاة العرب ، قد جعلت من رعاة الابل والشاء وصغار التجار فى مكة ، والفلاحين فى المدينة ، رجالا ، كلما احتاج تاريخها الى واحد منهم وجده مهيأ للامارة على الناس من كل الأجناس ، كأنما نشأ فيها ، ودرج لها . رجالا قوامين بالقسط ، كما أراد القرآن : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » . « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

وليس نجاح الفتح العربى ، وانتشار الدعوة الا أثرا لسحرها فى تغيير النفوس وتوجيهها للخير ، ولولا رجال أعدتهم المدرسة المحمدية للمثل العليا ، أعدتهم لارشاد البشر وقيادته وحكمه ، لما تجاوز الفتح الاسلامى الجزيرة العربية ، ولذهبت آثاره بموت الرسول وارتداد الأعراب ، ولكن الشباب الذين طبعتهم الدعوة بطباعها استمروا يفيضون على جيلهم ماأودعوا من فيض الرسول ثلاثين سنة بعد وفاته ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، الخلفاء الراشدون ، لم يكونوا الا شباب الرسالة وقت أن أسرها ثم جهر بها محمد للناس .

وليتبين لنا واضحا أثر الدعوة المحمـــدية فى نفوس الشباب الذين هاجروا للحبشة ، وخالفوا آباءهم وكبراءهم فى سبيل عقائدهم ، نذكر لكم موقف جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى فهو موقف يدل على امتلاك الدعوة المحمدية لنفوس من اجتذبتهم ، كما يبين لنا موضوع الدعوة نفسها ، كما فهمها المهاجرون والمهاجرات ، بل كما فهمها أنصارها فى ذلك العصر .

خرج أولئك السابقون لتلبية الرسول ومعهم من الفتيان والفتيات من ينتسبون لمختلف البطون فى قريش ، ويتصلون بالقرابة لأعاظم رجال مكة ، وأشد خصوم الدعوة ، وفيهم أبناء وبنات لأمثال المغيرة ، وسهيل بن عمرو ، وأمية بن خلف ، فبعثت مكة فى أثرهم رجلين من دهاتها : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة . ومعهم هدايا مما يستطرف النجاشى من متاع مكة ، له ولكل بطريق (١) من بطارقته ، وأوصوهما أن يدفعا لكل بطريق بهديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم يسلما النجاشى هديته ، ويسألاه تسليم اللاجئين .

فلما وزعا الهدايا قالا لكل بطريق منهم : قد أوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردوهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ، ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهم : نعم . ثم سلما للنجاشى هداياه ، وقالا له مثل الذى قالا للبطارقة ، فأشار البطارقة بتسليمهم ، ولكن النجاشى أبى أن يأمر بذلك حتى يسمع قول المهاجرين ، فدعاهم وسألهم : ما هـــذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فقام جعفر ، وكان اللاجئون قد اختاروه ، واتفقوا على أن يقول ما علموا ، وما أمر به النبى ، كائنا فى ذلك ما هو كائن . فقال : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصـــنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفـــواحش ، ونقطع الرحم ، ونسىء

---

(١) البطريق : القائد من قواد الروم .

الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، وضيقوا علينا الخناق ، فخرجنا الى بلادك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم ، قال النجاشي : فاقرأه ، فقرأ صدرا من « كهيعص » ، فبكى النجاشى ، ثم قال : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

هذه هى الدعوة كما فهمها شباب ذلك العصر ، بل كما فهمها أشد الناس تعلقا بها ، وهذا هو أثرها منطبعا فى نفس ذلك الشاب القرشى ، يحدث عنها ملكا من الملوك بثقة وبقوة .

انكم لتلمسون فى كلمات جعفر الموجزة صورة كاملة للدعوة المحمدية ، والمجتمع الذى نشأ عنها ، فقد بدلت الدعوة وجهة نظر الفرد للحياة تبديلا تاما ، كما قلبت أوضاع الاجتماع العربى الى عكس ما اصطلح الناس عليه ، وابتدعت كما يقول رسل قريش جديدا لم تعرفه العرب ، ولا غير العرب .

ذلك الجديد هو الرسالة المحمدية ، وأثرها هو الانقلاب الذى شمل العرب وجيرانهم ولازلنا ولا يزال الناس فى آثاره حتى آخر الدهر .

ظفرت الدعوة وطأطأت كما يقول « هيل » أمة لارادة رجل واحد ، لأنه نفخ فيها من روحه ايمانا قويا ساميا وأحل فى قلبها الفضيلة خالصة

نقية ، ووجهها على جادة العظمة والفتح العالمى . ولقد كان الاتحاد والتعاون منكرا لا يعرفه العرب الا فى حدود العشيرة ، وكان الـكبر والفخر والجاه والمال أسمى ما يتطلع الناس اليه ، فلما نجحت الدعوة المحمدية قامت وحدة العرب على تضامن الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء ، فأصبحت المؤاساة حقا مفروضا على الأغنياء ، عليه يقوم تكافل المجتمع ، وعليه تقـوم الدولة التى ولدتها الدعوة الجديدة .

تبدلت نظرة الفرد للحياة تبـدلا تاما ، وانقلب النظام الاجتماعى بما ابتدع الاسلام من الأصول ، وما وضع من الشرائع .

وقد عبر العلامة « هيل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمة القوية .

« ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم ، ولكنا لا نعـرف فى تاريخ البشر أن دينا انتشر بهـذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الاسلام ، ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد .

لقد أخرج أمة الى الوجود ، ومكن لعبـادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضـع أسس العدالة والمسـاواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحل النظام والتنـاسق والطاعة والعزة فى أقـوام لا تعرف غير الفوضى » .

تلك بعض آثار الدعوة المحمدية فى الفرد وفى الجماعة ألممنا بها اجمالا فى هذا الفصل من هـذا الكتاب ، وقد فصلنا هـذا الاجمال فى (الرسالة الخالدة) .

وصف صورته

أما بعد ، فان كل ما تقدم كان وصفا للمعانى الالهية والانسانية الفائقة التى كانت تعمر عقل بطل الأبطال وخاتم النبيين وقلبه ، وكانت ملاك روحه وقوام فكره وخلقه ، وهى سر الله الخالق فى الانسان الكامل الذى جعله قمة هذا النوع الانسانى ومنار الأسوة والقدوة لأفراده وأبطاله فيما أعقبه من الدهور .

ولـكن حب البشر لرؤية « الجسم » الذى تمثلت فيه هذه المعانى والأسرار يحتاج الى تكميل الصور المعنوية التى رسمتها فصول هذا الكتاب بوصف الصورة الجسمية التى كانت وعاء لهذه المعانى والأسرار .

وهاهى ذى كما وصفها على كرم الله وجهه . قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شثن الكفين والقدمين (أى أنهما الى الغلظ أقرب) ضخم الكراديس (ألواح الأكتاف) مشربا وجهه حمرة ، طويل المسربة (الشعر ما بين السرة واللبة) واذا مشى تكفأ تكفؤا (أى يميل الى الأمام) كأنما ينحط من صبب (انحدار) ، لم أر قبله ولا بعده مثله ! وكان أدعج العينين (الدعج شدة السواد وشدة البياض) سبط الشعر (سهلا غير ملبد) سهل الخدين (غير مرتفع الوجنتين) ذا فروة (ما وصل الى شحمتى الأذن من الشعر) كأن عنقه ابريق فضة ، واذا التفت التفت جميعا ، كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ الرطب لطيب عرقه وريحه » .

هذا هو وصف (صدفته) الشريفة التى ضمت لؤلؤته اليتيمة الفذة ! وفيها تستبين مخايل العظمة وشواهد الكمال التى أرادها الله عز وجل لأجسام النوع الانسانى . ولا عجب بعد هذا الكمال الجسمانى والروحانى أن يكون كل من رآه بديهة هابه ، وكل من خالطه أحبـــه ذلك الحب البـــاذل الفادى المؤمن ... صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فهـــرس

صفحة